الفصل الثانى

بو تقة الإيمان

١٦٤٣ — ١٧١٥

١ — الملك والكنيسة

ينزع المؤرخ — كما ينزع الصحفى — إلى فقدان الخلفية العادية للعصر وسط الواجهة المثيرة للصورة التى يرسمها ، لأنه يعلم أن قراءه سيستطيبون الشاذ ويحبون تجسيد العمليات والأحداث . ولكن وراء حكام فرنسا ، ووزرائها ، وحاشيتها ، وعظياتها ، ومقاتليها ، كان هناك رجال ونساء يتنافسون على الرزق والرفقاء ، يزجرون أبناءهم ويحبونهم ، يأثمون ويعترفون بإثمهم ، يلهون ويتشاجرون ، يذهبون إلى أعمالهم متثاقلين وإلى المواخير متسترين ، وإلى الصلاة متواضعين متذللين . وكان طلب الخلاص الأبدى يقطع بين الحين والحين كفاح البقاء اليومى ، والحلم بالجنة ينتعش كلما ذبلت شهوة الحياة ، وصحن الكنيسة الظليل يريح هنيهة من وطيس الصراع . وكانت أساطير المعجزات شعر الجماهير ، والقداس مسرحية خلاصهم المعزية ، وسمت الرسالة التى يحملها الكاهن بقلوب الفقراء المهزومين ولو كان هو ذاته رجلا دنيويا جشعا . وظلت الكنيسة المنافس للدولة ركيزة للمجتمع والسلطة ، لأنه بالرجاء أذعن الناس فى صبر للعمل الشاق ، والقانون ، والحرب .

وعرف كبار الأكليروس الكاثوليك أهميتهم فى معجزة النظام ، وشاركوا النبلاء والملك موارد الأمه وبهاء البلاط . وخالط الأساقفة ورؤساء الأساقفة فى ألفة مهذبة أعلام القوم من طراز كونديه ، ومونبنسييه ،

وسفينييه ، وداعب المئات من الآباء — أنصاف المكرسين ، أنصاف المتزوجين — داعبوا النساء والأفكار . على أنه يمكن القول بوجه عام أن عقلية رجال الأكليروس الكاثوليك وأخلاقهم كانت خيراً مما عهدناه خلال قرون قبل ذلك ، ربما بحافز من منافسة القساوسة الهيجونوت[1] .

لم تكن أديار الراهبات « مراتع الرذيلة » التي صورها جنون خلق الأساطير ، المنبعث من الكراهية للدين . فالكثير منها كان صوامع للورع الصادق ، الزاهد أحياناً ، كدير الكرمليات الذي اعتكفت فيه لويزدلافاليير ، وبعضها الآخر كان ملاذاً لشابات الأسر الكريمة اللاتي لم يجد آباؤهن لهن أزواجاً أو مهوراً ، أو اللاتي اقترفن إثماً ، أو أسأن إلى حاكم أو ملك . في أديار كهذه لم ير نزيلاتها حرجاً في استقبال زائر من العالم الخارجي ، أو في مراقصة بعضهن البعض ، أو في قراءة الأدب الدنيوي ، أو في تخفيف سأمهن بلعب البلياردو أو الورق . وبإصلاح دير من هذه جعلت جاكلين آرنو دير البور — رويال أشهر دير في تاريخ فرنسا .

على أننا لا نستطيع مثل هذا الحديث المترفق عن الطرق الديرية ، فالكثير منها أرخى نظمه ، وعاش حياة التبطل ، والعبادة الصورية ، والالحاف في التسول . وقد أصلح « أرمان جان درانسيه » دير نوتردام دلا تراب بنورمنديا ، وأسس الطريقة الترابية الصارمة التي مازالت حية في صمت . ودخل اليسوعيون دخولا أنشط في حياة فرنسا وتاريخها . كانوا في بداية القرن السابع عشر موضع توجس وريبة باعتبارهم مدافعين عن قتل الملك ، أما في نهاية القرن فقد كانوا كهنة اعتراف ومرشدين للملك — ثم أنهم كانوا خبراء في علم النفس . فحين أسست الراهبة مارجريت ماري ألاكوك بوحي من رؤيا صوفية تراءت لها (١٦٧٥) جمعية منقطعة للعبادة العلنية لـ « قلب يسوع المقدس » ، شجع اليسوعيون الحركة باعتبارها منفذاً وحافزاً لتقوى الجماهير . وفي الوقت نفسه يسروا الدين للخطاة إذسلموا بأن

الخطيئة فى طبيعة البشر ، ووضعوا علم « الإفتاء » سبيلا للتخفيف من عسر الوصايا العشر وللتلطيف من عصاب تأنيب الضمير ، وما لبث أن اشتدالطلب عليهم آباء اعتراف للخطاة ، واكتسبوا سلطة «مرشدى الضمائر» ، لاسيما بين النساء اللاتى سدن المجتمع الفرنسى ، واللاتى أثرن أحيانا فى السياسة القومية للبلاد .

ولم يكن لكلمة « الافتاء » فى القرن السابع عشر ذلك المدلول المهين الذى الصقته بها رسائل بسكال الأقليمية . فقد كان يفترض فى كل قسيس ، بوصفه أب اعتراف أو مرشدا روحياً ، أن يعرف بالضبط ما الذى يجب أن يعتبر خطيئة مميتة ، أو خطيئة هينة ، أو لا خطيئة على الأطلاق ، وكان عليه أن يستعد لتطبيق علمه ، والملاءمة بين حكمه ، ونصحه ، والعقوبة الكنسية التى يشير بها ، وبين الحالة الماثلة أمامه (Cæsus) . وكان معلمو الناموس اليهود قد طوروا هذا الفن ، فى التميزات الخلقية ، بتفصيل مستفيض فى الأجزاء القانونية من التلمود ، وحذا حذوهم التشريع والطب النفسى العصريان . وقبل أن تنشأ جماعة اليسوعيون بزمن مديد ، وضع اللاهوتيون الكاثوليك الأبحاث الضخمة فى الافتاء لإرشاد الكاهن فى أمر المبدأ الخلقى والتطبيق الاعترافى . فى أى الحالات مثلا يجوز أن يبدى على حرفية القانون الخلقى روحه أو قصده ؟ ومتى يجوز للإنسان أن يكذب أو يسرق أو يقتل ، أو يحنث بوعد حنثا معقولا ، أو ينتهك يمينا ، أو حتى ينكر العقيدة ؟

وطالب بعض المفتين بتفسير القانون الخلقى تفسيراً صارما ، ورأوا أن الصرامة أجدى فى المدى الطويل من التساهل . ولكن غير هؤلاء — ولا سيما اليسوعيين مولينا ، وإسكوبار ، وتوليدو ، وبوزنباوم — حبذوا دستورا أخلاقيا متسامحا ، وحضوا على ضرورة التماس العذر للطبيعة البشرية ، ومؤثرات البيئة ، والجهل بالقانون ، والمشقة البالغة فى الامتثال الحرفى للقانون ، وعنف سورات العاطفة حتى شبيها بالجنون ، وسائر الظروف

التى تعطل حرية الإرادة. وتيسيرا لهذه الأخلاقيات اللينة، وضع اليسوعيون مبدأ الترجيح — ومؤداه أنه إذا استحسن حجة معروف فى اللاهوت الخلقى رأيا بعينه، جاز لكاهن الاعتراف أن يحكم طبقاً لهذا الرأى إذا استصوب ذلك، ولو عارضته كثرة الخبراء. (وكانت كلمة Probabilia تعنى فى ذلك الوقت المستحسن، أو الذى يسمح بالاستحسان[٢]). يضاف إلى هذا، فى رأى بعض المفتين اليسوعيين، أنه من المباح أحيانا أن يكذب الإنسان، أو يمسك عن قول الحق بـ « تحفظ عقلى »؛ مثال ذلك أن للمسيحى الأسير، إذا أكره على الخيار بين الإسلام والموت، أن يتظاهر بقبول الإسلام دون أن يحسب ذلك خطيئة عليه. ثم إن أخلاقية عمل ما، فى رأى إسكوبار، ليست فى الفعل نفسه، الذى ليس فى ذاته أخلاقيا أولا أخلاق، بل فى نية الفاعل الخلقية، فليس هناك خطيئة مالم يكن هناك خروج واع، مختار، عن القانون الخلقى.

والكثير من إفتاء اليسوعيين كان توفيقا معقولا رحيما بين القواعد التى يغلب عليها زهد العصر الوسيط، وبين مجتمع اكتشف مشروعية اللذة. ولكن اليسوعيين فى فرنسا بصفة خاصة، وفى إيطاليا بدرجة أقل، طوروا الافتاء حتى بلغوا به من التسامح مع ضعف الطبيعة البشرية مبلغا جعل رجالا جادين كبسكال فى باريس، وساربى فى البندقية، وكثيراً من اللاهوتيين الكاثوليك، ومنهم عدة يسوعيين[٣] — حملوا هؤلاء جميعا على الاحتجاج على ما رأوا فيه استسلاما من المسيحية للخطيئة. وصدم هذا التراخى اليسوعى مع العالم والجسد مشاعر هيجونوت فرنسا الذين ورثوا دستور كالفن الخلقى الصارم. وقامت حركة قوية داخل الكاثوليكية ذاتها — وهى الجانسنية — فرفعت فى دير البور — رويال لواء أخلاقية شبه كالفنية، فى حرب مناهضة لليسوعيين أهاجت فرنسا والأدب الفرنسى قرنا كاملا. وجرت هذه الحرب لويس الرابع عشر إلى المعركة، لأن كهنة اعترافه كانوا يسوعيين وتطبيقه للدين لم يكن متزمتا. وفى ١٦٧٤ اضطلع الأب لاشيز بالأشراف

على ضمير الملك ، وقد وصفه فولتير بأنه « رجل هادئ الطبع يسهل عنده التوفيق دائما .[٤] » وقد شغل المركز اثنين وثلاثين سنة ، غفر خلالها كل شيء وحظى بمحبة كل إنسان . وقد قال لويس عنه « بلغ من طيبته أنني كنت أحيانا ألومه عليها[٥] » . ولكنه بطريقته الهادئة الصابرة كان له تأثير بالغ على الملك ، وأعان على توجيهه إلى الاقتصار على امرأة واحدة آخر المطاف ، وإلى طاعة البابا .

ذلك أن لويس لم يكن دائما « بابويا » صادقا . كان متدينا على طريقته الرسمية ، وندر أن قصر في حضور القداس اليومي[٦] . قال لولده في مذكراته :

« . . . واصلت تدريبات التقوى التي نشأتني عليها أمي ، من جهة لأشكر الله على كل الحظ الطيب الذي نلته ، ومن جهة لأكسب محبة شعبي . . . والحق يا بني أننا لا نفتقر إلى عرفان الجميل والإنصاف فحسب ، بل إلى الحكمة والفطنة أيضا ، حين نقصر في عبادته تعالى ، الذي لسنا إلا نوابا له . وما خضوعنا له إلا القاعدة والمثل للخضوع الذي نستحقه[٧] » .

على أن هذا لم يشمل الخضوع للبابوية . ذلك أن لويس ورث التقليد « الغالي » بمقتضى تفويض بورج البرجماتي (١٤٨٣) وكونكوردا فرنسوا الأول (١٥١٦) — ذلك التقليد الذي أقر حق ملوك فرنسا في تعيين أساقفه فرنسا ورؤساء أديارها ، وتحديد دخولهم ، والتعيين في جميع الوظائف الكنسية ذات الدخول في الفترة بين موت الأسقف وتنصيب خلفه . وقد آمن لويس أنه خليفة لله أو ممثله في فرنسا ، وأن خضوعه للبابا (بوصفه هو أيضا خليفة لله) يجب أن يقصر على شئون العقيدة والأخلاق ، وأن على رجال الأكليروس الفرنسيين أن يطيعوا الملك في كل أمر يتصل بالدولة الفرنسية .

واستنكر فريق من الأكليروس هذه الدعوى — وهم المناصرون للسيادة

البابوية المطلقة — وأيدوا سلطان البابوات المطلق على الملوك والمجامع وتعيين الأساقفة ، ولكن الغالبية — وهم الحزب الغالى — دافعوا عن استقلال الملك الكامل فى الأمور الزمنية ، وأنكروا عصمة البابا إلا إذا وافق عليها مجمع مسكونى ، ورأوا فى الروفان من سيطرة روما منفعة للاكليروس الفرنسى . وصرح أمير كونديه أن من رأيه أنه لو طاب للملك أن يتحول إلى المذهب البروتستنتى لكان رجال الأكليروس الفرنسى أول من يتبعه(٨). وفى ١٦٦٣ أصدرت السوربون — وهى كلية اللاهوت فى جامعة باريس — ست مواد تؤكد الموقف الغالى . واتخذت « البرلمانات » الفرنسية ذات الموقف ، وأيدت لويس فى دعواه بحقه فى أن يقرر أى المراسيم البابوية ينبغى نشره وقبوله فى فرنسا . وفى ١٦٧٨ احتج البابا أنوسنت السادس على هذه النزعة الغالية ، وحرم رئيس أساقفة تولوز لأنه عزل أسقفا قاوم هذه النزعة . ودعا الملك مجمعا من الأكليروس ، كلهم تقريبا من اختياره . وفى مارس ١٦٨٢ أعاد المجمع تأكيد مواد السوربون الست ، ووضع لنفسه المواد الأربع الشهيرة ، التى كادت تفصل الكنيسة الفرنسية عن روما :

١ — للبابا سلطان فى الأمور الروحية ، وليس له سلطان عزل الأمراء أو حل رعاياهم من طاعتهم .

٢ — للمجامع المسكونية سلطان فوق سلطان البابا .

٣ — الحريات التقليدية للكنيسة الفرنسية لا يجوز انتهاكها .

٤ — لا عصمة للبابا إلا بموافقة مجمع الأساقفة .

وأعلن أنوسنت بطلان قرارات المجمع ، ورفض التنصيب القانونى لجميع الأساقفة الجدد الذين وافقوا على المواد . وإذ كان لويس لا يعين إلا أمثال هؤلاء المرشحين ، فقد شغرت فى ١٦٨٨ نحو خمس وثلاثين أسقفية من أساقفتها القانونيين . على أن الشيخوخة ومدام دمانتنون كانا قد الانا جانب الملك ، ثم أراحه الموت من ذلك البابا العنيد . وفى ١٦٩٣ سمح لويس

لمرشحيه إن ينكروا المواد ، وأقر البابا أنوسنت الثانى عشر حق الملك فى التعيينات الأسقفية ، وأصبح لويس من جديد « الملك المسيحى جداً » Rex Christianissimus .

٢ – البور – رويال : ١٢٠٤ – ١٦٢٦

كانت الحرب القديمة بين الكنيسة والدولة أهون الدرامات الدينية الثلاث التى اضطرم بها حكم لويس . فقد فاقها عمقا ذلك الصراع الذى احتدم بين الكاثوليكية السنية التى دانت بها الدولة والأكليروس ، وكاثوليكية الجانسنيين والبور — رويال القريبة من البروتستنتية ، وكان أعمق هذه المسرحيات وأشدها فجيعة هو القضاء على الهيجونوت فى فرنسا . ولكن ما هو البور — رويال هذا ، ولم هذا الضجيج الكثير من حوله فى التاريخ الفرنسى ؟ لقد كان ديراً لراهبات الطريقة السسترسية Cistercian على نحو ستة عشر ميلا من باريس وستة أميال من فرساى ، فى مكان وصفه تكتنفه المستنقعات ، وصفته مدام دسفينييه بأنه « واد رهيب ، هو بالضبط المكان الذى يجد فيه الإنسان خلاصة(٩) » . أسس حوالى ١٢٠٤ ، ونجا بشق الأنفس من التقلبات الكثيرة التى تعرض لها فى حرب مائة العام والحروب الدينية . وقد اضمحل نظامه وتناقصت راهباته ، ولعل الدير كان يختفى عن الأنظار لولا أنه خضع لرآسة جاكلين آرنو ، وجرد للدفاع عنه قلم بليز بسكال .

لقد صنع أنطوان آرنو الأول (١٥٦٠ — ١٦١٩) التاريخ ببلاغته ووفرة ذريته . ففى ١٥٩٣ ، بعد أن حاول باربير اغتيال هنرى الرابع ، وجه آرنو إلى برلمان باريس خطابا غاضبا طالب فيه بطرد اليسوعيين من فرنسا . ولم يصفحوا عنه بعدها ، وكانوا ينظرون بعين تقادة منذرة بالشر إلى ما قام به أسرته فى البور — رويال . وكان لأربعة على الأقل من بين أبنائه — البالغين نيفا وعشرين — دور فى قصة ذلك الدير . فقد عينت جاكلين آرنو

مساعدة لرئيسة دير البور — رويال وهى فى السابعة (١٥٩٨) وبعد عام أصبحت شقيقتها جان، البالغة ستة أعوام، رئيسة لدير سان — سير. وكان التعيينان بأمر هنرى الرابع، وثبتهما مرسومان بابويان أمكن الحصول عليهما بتزييف عمر الفتاتين(١٠). ولعل أباهما التمس لابنتيه هاتين الوظيفتين بديلا عن العثور على زوجين ومهرين لهما.

فلما أصبحت جاكلين، بوصفها الأم آنجليك، رئيسة إمية البور — رويال (١٦٠٢) لم تجد غير أرخى النظم بين راهباته الثلاث عشرة، فقد كانت كل منهن تحتفظ بثروتها، وتكشف شعرها، وتستعمل مستحضرات التجميل، وتتبع أحدث الأزياء. وقل أن تناولن الأسرار المقدسة، ولم يستمعن لأكثر من سبع عظات خلال ثلاثين عاما(١١). فلما ازداد وعى الرئيسة الشابة بالحياة التى ألزمها إياها أبواها، سخطت ونوت الهروب (١٦٠٧). «فكرت فى مغادرة البور — رويال والعودة إلى العالم — دون إحاطة أبى أو أمى بنيتى، لأهرب من هذا النير الذى لا يطاق، ولأتزوج». (١٢) ومرضت، فحملت إلى بيتها، وهناك مرضتها أمها بكثير من الرعاية الحانية حتى عادت إلى البور — رويال عقب إبلالها وهى مصممة على الوفاء بنذورها الديرية حبا فى أمها. على أنها أوصت بمشد من عظام الحوت لتحفظ لقوامها نحافته(١٣). وظلت تخفى نفورها من الحياة الدينية إلى أن سمعت فى عيد القيامة عام ١٦٠٨ عظة ألقاها راهب كبوشى عن آلام للمسيح، وكانت يومها فى ميعة الصبا. قالت تروى الحدث فيما بعد «خلال هذه العظة لمسني الله لمسة جعلتنى أحس منذ تلك اللحظة بأنى أسعد حالا فى حياة الرهبنة... ولا أدرى أى شىء كنت أحجم عن فعله لله إذا واصل تعالى هذه الحركة التى منحتني إياها نعمته(١٤)». ذلك، فى لغتها، كان «أول عمل للنعمة» (أى اللطف الإلهى).

وفى أول نوفبر من ذلك العام ملأتها عظة أخرى — هى «ثانى أعمال

النعمة ، شعورا بالخزى من شدة تراخيها وتراخى راهباتها فى الوفاء بما نذرن من فقر وعزلة . وإذ كانت ممزقة بين حبها للراهبات ورغبتها فى فرض نظام الطريقة الستترسية ، فقد رانت عليها الكآبة ، ومارست ألوانا من التقشف لم يقو عليها جسدها ، فأصابتها الحمى . ولابد أنها كانت لطيفة محببة إلى النفوس ، وآية ذلك أنه حين سألها الراهبات عن السر فى حزنها ، وصارحتهن برغبتها فى أن يرجعن إلى التزام نظام رهبتهن بحذافيره ، ارتضين حكمها ، وجعن كل ممتلكاتهن الخاصة ، وأخذن العهد على أنفسهن بالفقر الدائم .

أما الخطوة الثانية ، وهى اعتزال العالم ، فكانت أشد إيلاما . فقد حظرت الأم أنجليك على الراهبات أن يغادرن الدير ، أو يستقبلن الزوار — حتى أقرب الأقرباء — دون إذن صريح ، فإذا استقبلنهم ففى قاعة الاستقبال دون غيرها . وشكون مما سيكلفهن هذا من عنت شديد . ولكى تعطيهن القدوة الحسنة المشددة لعزائمهن صممت ألا ترى أبويها فى زيارتهما التالية إلا من نافذة ذات شباك أو « شيش » فى الباب الفاصل بين قاعة الاستقبال وحجرات الدير . فلما حضر أبواها راعهما أنها لاتريد التحدث إليهما إلا من خلال هذا الشباك . . وأصبح « يوم الشباك » journee du guichet (٢٥ سبتمبر ١٦٠٩) يوما مشهورا فى الأدب الدائر حول البور — رويال .

وهدأ غضب الأسرة المقصاة ، وتأثر أفرادها بورع الأم أنجليك (التى بلغت الآن الثامنة عشرة) تأثرا حمل الفتاة تلو الفتاة من بيت آرنو على دخول البور — رويال . فنى ١٦١٨ ، أخذت شقيقتها آن أوجنى على نفسها عهد الرهبنة . ولحقتها شقيقات أخريات بعد قليل — كاترين ، ومارى ، ومادلين . وفى ١٦٢٩ ، جثت أمهن الأرملة عند قدمى الأم أنجليك ملتمسة قبولها مبتدئة فى الرهبنة ثم أخذت العهد فى الوقت المناسب ، وعاشت فى تواضع وسعادة

تحت رئاسة ابنتها ، وراحت تدعوها منذ الآن بالأم . وقد حمدت الله وهى تحتضر (١٦٤١) لأنها قدمت ستاً من بناتها للحياة الدينية . ودخلت خمس من حفيداتها البور — رويال فى فترة لاحقة . وأصبح ابنها روبير وثلاثة من حفدتها « متوحدين » هناك ، وأصبح ألمع أبنائها ، وهو انطوان آرنو الثانى ، عضو السوربون ، فيلسوف البور — رويال ولاهوتيه . وإنا ليأخذنا العجب لهذه الخصوبة ، ولا نملك غير الاحترام لمثل هذا العمق فى التعبد والولاء والإيمان(*) .

وقادت الأم أنجليك قطيعها خطوة بخطوة عــوداً إلى نظام الرهبنة السترسية الكامل . فخفظت الراهبات ، اللائى بلغ عددهن الآن ستا وثلاثين ، جميع الأصوام بدقة تامة ، ومارسن الصمت فترات طويلة ، واستيقظن فى الثانية صباحا لترتيل تسبحة الصباح ، ووزعن الصدقات على فقراء الجيران من مالهن المشترك . وسرت الإصلاحات من البور — رويال ، وأرسلت الراهبات اللائى دربن فيه الأديار فى جميع أرجاء فرنسا لحضها على العودة إلى سابق نظمها . من ذلك أن ديرا فى موبويسون كان شديد الإنحلال ، وقد استعمله هنرى الرابع من قبل مكان لقاء مع خليلته جابرييل دستريه ، وكانت رئيسته حاملة ببناتها غير الشرعيات ، وكان الراهبات يغادرن ديرهن دون قيد ليلقين ويراقصن رهبان دير مجاور(١٦) . وفى ١٦١٨ طلب رؤساء الأم انجليك إليها أن تحل محل رئيسة دير موبويسون ، ومكثت هناك خمس سنوات ، فلما عادت إلى البور — رويال تبعتها اثنتان وثلاثون راهبة إلى الدير الأم الذى انبعث منه نور الإصلاح .

وفى ١٦٢٦ ظهر وباء الملاريا فى البور — رويال ، وإذ نبه بمضوم أنجليك

(*) لاحظ سانت — بيف أن « عدة شابات ممن بينهن راهبات البور — رويال كن قد أصبن بالجدرى فتشوهت وجوههن فى سن مبكرة » ، وأضاف فى خبث « لا أريد أن أقول أننا لا نهب الله إلا مافقد قيمته فى هذه الدنيا » (١٥) .

إلى مافى جوالدير الرطب من خطر ، فإنها انتقلت مع راهباتها إلى منزل بباريس . وهناك ، وتحت تأثير الجانسنية ، دخلن معركتهن التاريخية مع اليسوعيين والملك . وسرعان ما احتل « المتوحـــدون » المبانى المهجورة المتهدمة فى البور — رويال — دى — شان ، وكانوا رجالا رغبوا فى أن يحيوا حياة أقرب إلى الحياة الديرية وان لم ينذروا أنفسهم المرهبنة . ووفد على المكان نفر من آل آرنو — أنطوان الثانى ، وأخوه روبير آرنو داندلى ، وابنا أختيه أنطوان لوميتر وسيمون لوميتر دسريكور ، وحفيده إسحاق لموى ساسى ، وانضم إليهم بعض رجال الكنيسة ، أمثال بيير نيكول وأنطوان سانجلان ، لابل بعض النبلاء أمثال الدوق دلون والبارون دبرنشانو . وراحوا يصرفون معامياه المستنقعات ، ويحفرون الخنادق ، ويرممون المبانى ، ويمنون بالبساتين والحدائق . وكانوا — جماعة أو فرادى — يمارسون ألوانا من الفنون ، ويصومون ، ويرتلون ، ويصلون ، ويلبسون لباس الفلاحين ، ويمتنعون عن تدفئة غرفهم فى البرد القارس . وكانوا يدرسون الكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة ، وقد ألفوا كتبا فيها تعبد وتفقه ، وأحد هذه الكتب ، واسمه « فن التفكير » ، وهو من تأليف نيكول وآرنو الصغير ، ظـــل كتيبا محببا فى المنطق حتى القرن العشرين .

وفى ١٦٣٨ افتتح المتوحدون « مدارس صغيرة » دعوا إليها أطفالا اختاروهم من سن التاسعة أو العاشرة ، وعلموهم الفرنسية ، واللاتينية ، واليونانية ، والنواحى السنية فى فلسفة ديكارت . وطلب إليهم أن يجتنبوا الرقص والمسرح (وكلاهما وافق عليه اليسوعيون) ، وان يصلوا كثيراً ، ولكن ليس للقديسين ، ولم تكن هناك صور دينية فى الكنيسه الصغيرة التى يسمعون فيها القداس . وفى البور — رويال — دى — شان ، والبور — رويال — د — بارى ، أصبح اعتراض تقوى آل آرنو على فساد البلاط ،

اعتراضاً آخر من اللاهوت والأخلاق الجانسنية الصارمة على تيسير اليسوعيين للمسيحية حتى توائم الطبيعة البشرية .

٣ ـ الجانسنيون واليسوعيون

كان كورنيليس جانسن هولنـديا ، ولد فى ولاية أوترخت لأبوين كاثوليكيين ، ولـكنه تأثر تأثرا عميقا باللاهوت الأوغسطيني الذى دان به جيرانه الـكالفنيون . فلما التحق بجامعة لوفان الـكاثوليـكية (١٦٠٢) وجدها مضطرمة بجدل عنيف بين الحزب اليسوعى أو السكولاستى ، وشيعة تتبع الآراء الأوغسطينية التى نادى بها ميخائيل بايوس فى الجبرية والنعمة الإلهية . وانحاز جانسن إلى الأوغسطينيين . وفى الفترة بين دراسته السابقة للتخرج وعمله أستاذا ، قبل جانسن دعـوة وجهها إليه زميل يدعى جان دوفرجييه دهوران ليعيش معه فى بايون . وقد درسا القديس بولس والقديس أوغسطين ، واتفقا على أن خير سبيل للدفاع عن الـكاثوليـكية ضد الـكالفنيين الهولنديين والهيجونوت الفرنسيين هو الاقتداء بأوغسطين فى تشديده على النعمة الإلهية والجبرية ، وتأصيل دستور أخلاق صارم بين الاكليروس والعلمانيين الـكاثوليك ، يفضح الانحلال المنتشر فى البلاط والأديار ، كما يفضح أخلاقيات اليسوعيين الهينة اللينة .

وفى ١٦١٦ ، بينما كان جانسن رئيسا لبيت للطلاب الهولنديين فى لوفان ، هاجم لاهوت اليسوعيين فى حرية الإرادة ، وبشر ببيوريتانية صوفية قريبة من التقوية التى كانت بسبيل التشكل فى هولندة ، وانجلترة ، وألمانيا . ثم واصل الحرب أستاذا لتفسير الـكتاب المقدس بلوفان ، وأسقفا لأيبر . وترك عند موته (١٦٣٨) رسالة كبيرة — لم ينجزها تماما — عنوانها «أوغسطينوس» مالبثت بعد نشرها فى ١٦٤٠ أن أصبحت البرنامج العقائدى

للبور — رويال ، ومثار الجدل فى اللاهوت الكاثوليكى الفرنسى طوال قرن تقريبا .

ومع أن الكتاب اختتم بلفتة خضوع لكنيسة روما ، فإن كالفنيى الأراضى المنخفضة رحبوا به بوصفه لب الكالفنية وجوهرها(١٧) . فقد قبل جانسن الجبرية قبولا تاما كما قبلها أوغسطين ولوثر وكالفن من قبل . ففى قبل أن يخلق الله العالم ، اختار تعالى أولئك الرجال والنساء الذين ينبغى أن يخلصوا ، وقرر من ينبغى أن يهلكوا ؛ وأعمال البشر الصالحة ، وإن تكن ذات قيمة ، لا يمكن إن تكسبهم الخلاص دون معونة من النعمة الإلهية ، وقليلون هم الذين سيخلصون حتى بين القلة الصالحة . أما الكنيسة الكاثوليكية فلم تكن أنكرت صراحة جبرية القديس بولس والقديس أوغسطين ، ولكنها تركتها تتوارى فى خلفية تعليمها ، لصعوبة التوفيق بينها وبين حرية الإرادة ، التى بدا أنها شرط لاغنى عنه — منطقيا — للمسئولية الخلقية ولفكرة الخطيئة . ولكن إرادة الإنسان فى رأى جانسن ليست حرة ، فقد فقدت حريتها بخطيئة آدم . وأصبحت طبيعه الإنسان الآن فاسدة فسادا يعجزه عن تخليص نفسه ، ولا يمكن أن يخلصه غير نعمة الله التى اكتسبها بموت المسيح . أما دفاع اليسوعيين عن حرية الإرادة فقد بدا لجانسن أنه يغالى فى دور الأعمال الصالحة فى نيل الخلاص ، ويجعل موت المسيح ، ذلك الموت الذى افتدى الخطاة ، أمراً لاضرورة له تقريبا . ثم نبه إلى أننا يجب ألا نأخذ المنطق مأخذ الجد الشديد ، فالعقل ملكة أدنى بكثير من الإيمان الواثق المسلم ، تماما كما أن للممارسات الطقسية ضرب من الدين أدنى من اتصال النفس المباشر بالله .

وقد وصلت هذه الأفكار إلى البور — رويال بطريق دوفرجييه ، الذى كان أثناء ذلك قد أصبح رئيسا لدير سان — سيران . وقد وفد مسيودسان — سيران ، كما سمى الآن ، على باريس وهو يتقد غيرة وتحمسا

لاصلاح اللاهوت والأخلاق ، وليستبدل التقوى الباطنة بالتدين الظاهر وسرعان ما قبل مرشدا روحيا للراهبات فى البور — رويال — دبارى ، وللمتوحدين فى البور — رويال دى — شان (١٦٣٦) ، وغدت هذه المؤسسة المزدوجة صوت الجانسنية ونموذجها الأمثل فى فرنسا . أما ريشليو فقد رأى فى هذا المصلح رجلا متعصبا مثيرا للقلاقل ، فاعتقله فى فانسين (١٦٣٨) . وفى ١٦٤٢ أفرج عن سان — سيران ، ولكنه مات بالفالج بعد سنة .

وقد ظل يلهم الكثيرين من آل آرنو حتى وهو فى سجنه . فنشر آرنو الثانى « آرنو الكبير » فى ١٦٤٣ رسالة فى « كثرة تناول الأسرار المقدسة » واصلت حرب أبيه مع اليسوعيين . ولم يذكر اسمهم صراحة ، ولكنه ندد بفكرة أحس بأن بعض الكهنة الاعتراف يتسامحون فيها ، وهى أن فى قدرة الخاطىء أن يكفر عن خطيئته المتكررة إذا أكثر من الاعتراف وتناول القربان . وشعر اليسوعيون بأنهم المقصودون بهذا الهجوم ، فشددوا النكير على آل آرنو . وتوقع أنطوان المتاعب ، فرحل عن باريس إلى البور — رويال — دى — شان . وفى ١٦٤٨ رحلت الراهبات أيضا عن العاصمة وقد روعتهن حرب الفروند وعدن إلى مقرهن القديم . وأخلى المتوحدون المكان وانتقلوا إلى مزرعة قريبة تدعى ليجرانج .

كان البابا أوربان الثامن قد أدان (١٦٤٢) العقيدة العامة التى انطوى عليها كتاب جانسن « أوغسطينوس » . وفى ١٦٤٩ طلب أستاذ فى السوربون إلى الكلية أن تدين سبع قضايا فى الكتاب رغم انها تحظى برواج شديد . وأحيل الأمر إلى انوسنت العاشر ، وانتهز اليسوعيون الفرصة ليقنعوا البابا بما تنطوى عليه الجانسنية من أخطار بوصفها لاهوتا كالفنيا يتخفى فى ثوب كاثوليكى . وأخيرا حملوه على إصدار مرسوم Cum occasione (٣١ مايو ١٦٥٣) ، حكم بالهرطقة على خمس قضايا زعم أنها مأخوذة من كتاب « أوغسطينوس » :

١ — هناك تعاليم الهية يعجز الصالحون عن طاعتها عجزا مطلقا رغم إرادتهم .

٢ — لايستطيع إنسان أن يقاوم تأثير النعمة الإلهية .

٣ — لكى تكون أعمال البشر أهلا أو غير أهل للمكافأة والتقدير لايشترط أن تكون خلوا من الضرورة القاهرة ، بل يكفى أن تكون بلا ضغط أو كبت .

٤ — هذه الهرطقة ، الشبيهة بهرطقة بيلاجيوس ، مؤداها السماح لارادة الإنسان بأن تمنح قوة مقاومة النعمة ، أو الامتثال لتأثيرها .

• — كل من زعم أن المسيح مات ، أو سفك دمه ، للبشر جميعا ، هو شبيه ببيلاجيوس(١٨) .

هذه القضايا لم تؤخذ حرفيا من كتاب « أوغسطينوس » ، ولكنها صيغت بقلم أحد اليسوعيين تلخيصا لتعليم هذا الكتاب . وهى كخلاصة فيها قدر لابأس به من الانصاف(١٩) ، ولكن الجانسنيين احتجوا بأن القضايا ، بهذا الوصف ، لاتوجد عند جانسن — وإن كان آرنو قد ألمع فى خبث إلى أنه يمكن العثور عليها كلها عند القديس أوغسطين . وفى غضون ذلك لم يقرأ الكتاب أحد فيما يبدو .

وكان أنطوان آرنو مقاتلا بالفطرة . فأقر بعصمة البابا فى أمور الإيمان والأخلاق ، لافى الأمور المتصلة بالحقيقة الواقعة ؛ ومن الحقائق الواقعه أنه أنكر أن جانسن قرر هذه القضايا المحكوم بإدانتها . وفى ١٦٥٥ عاد إلى مقاتلة اليسوعيين فى عقر دارهم بنشره « رسائل إلى دوق وبيل » ، وقد هاجم فيها الأساليب التى زعم أنها أساليب اليسوعيين فى كرسى الاعتراف ورحبت السوربون باقتراح بطرده . فأعد دفاعه ، وقرأه على أصحابه فى البور — رويال . فلم يقع من نفوسهم موقعا ذا بال ، وكان أحدهم

مريدا جديدا يدعى بليز بسكال. فاتجه إليه آرنو وأهاب به قائلا : « أنت أيها الشاب ، لم لا تكتب شيئا(٢٠) ؟ » واعتكف بسكال فى حجرته ، وكتب أول «رسائله الإقليمية» وهو من عيون الأدب والفلسفة الفرنسيين. وينبغى أن نستمع إلى بسكال فى شىء من الإسهاب ، لأنه لم يكن أعظم كتاب النثر الفرنسى فحسب ، بل ألمع المدافعين عن الدين فى عصر العقل بأكمله .

٤ - بسكال : ١٦٢٣ - ٦٢

ا — بسكال الإنسان

كان أبوه إتيين بسكال رئيسا لمحكمة المعاونين بكليرمون — فيران فى وسط فرنسا الجنوبى. وماتت أمه بعد مولده بثلاث سنين ، مخلفة فضلا عنه أختا أكبر منه تدعى جلبيرت وأخرى أصغر تدعى جاكلين. وانتقلت الأسرة إلى باريس حين بلغ بليز الثامنة . وكان إتيين يدرس الهندسة والفيزياء ، وقد اتاح له تفوقه فيهما أن يصادق جاسندى ، وميرسين ، وديكارت . وكان بليز يسترق السمع لبعض لقاءاتهم ، فأصبح فى الفترة الأولى من حياته عاشقا للعلم. فلما بلغ الحادية عشرة ألف رسالة قصيرة عن أصوات الأجسام المتذبذبة. وخيل للأب أن ولع الصبى بالهندسة سيلحق الأذى بدراساته الأخرى ، فحظر عليه حينا أن يمضى فى عكوفه على الرياضيات. ولكن حدث يوما — فيما روى — أن إتيين وجده يكتب على الحائط بقطعة من الفحم البرهان على أن زوايا المثلث الثلاث تساوى زاويتين قائمتين(٢١) ، وبعدها سمح للغلام أن يدرس اقليدس. وقبل أن يبلغ السادسة عشرة كتب بحثا فى القطاعات المخروطية فقد أكثره ، ولكن إحدى نظرياته كانت مساهمة خالدة فى ذلك العلم ، وما زالت تحمل اسمه . وحين عرضت مخطوطة البحث على ديكارت أبى أن يصدق أنه من وضع الابن لا الأب .

فى ذلك العام (١٦٣٩) لعبت أخته الجميلة جاكلين دوراً مثيراً فى حياة الأسرة ، وكانت آنئذ فى الثالثة عشرة . ذلك أن الأب كان قد استثمر بعض المال فى السندات البلدية ، وخفض ريشليو نسبة الفائدة التى تؤدى عن هذه السندات ، فانتقده إتيين ، وهدد الكردينال بالقبض عليه ، فاختبأ فى أوفرن . ولكن الكردينال كان يحب التمثيليات والبنات ، وقامت بعض الفتيات — ومنهن جاكلين — بتمثيل مسرحية سكوديرى « الحب الظالم » أمامه ، فشرح تمثيلها صدره ، واغتنمت هى الفرصة وتوسلت إليه أن يصفح عن أبيها ، ففعل ، وعينه ناظراً ملكياً فى روان عاصمة نورمنديه ، وإليها انتقلت الأسرة فى ١٦٤١ .

وهناك اخترع بليز أول آلاته الحاسبة العديدة المحفوظ بعضها إلى الآن فى كونسرفتوار الفنون والصنائع بباريس ، وكان يومها فى التاسعة عشرة . أما المبدأ الذى قامت عليه فهو سلسلة من التروس ينقسم كل منها إلى تسعة أرقام وصفر ، ويحرك كل منها ليدور عشر دورة نظير كل دورة كاملة للترس الذى إلى يمينه ، ويظهر كل منها رقمه الأعلى فى ثقب عند القمة . ولم تكن الآلة تستطيع غير الجمع ، ولا كانت عملية من الناحية التجارية ، ولكنها قربت من بداية تطور يثير اليوم دهشة العالم . وأهدى بسكال إحدى آلاته الحاسبة إلى كرستينا ملكة السويد ، مشفوعة بخطاب اطراء بليغ جداً ، فدعته إلى قصرها ، ولكنه أحس بأنه أضعف من أن يحتمل ذلك للمناخ الرهيب .

وكان العالم الشاب المتحمس شديد الاهتمام بالتجارب التى نشرها تورتشيللى عن وزن الهواء ، وطرأت على خاطر بسكال فكرة كان فيها مستقلا عن تورتشيللى ، ولكن ربما استوحاها من اقتراح لديكارت(٢٢) ، ومؤداها أن الزئبق فى أنبوبة تورتشيللى يرتفع إلى مستويات مختلفة فى ماكن مختلفة ، حسب اختلاف الضغط الجوى . فطلب إلى زوج أخته فى أوفرن أن يحمل أنبوبة زئبق إلى قمة جبل ، ويلاحظ أى فرق — على مختلف

المستويات — فى ارتفاع الزئبق فى الجزء المقفل من أنبوبة فتح طرفها الآخر لضغط الهواء. وفعل فلوران بيرييه كما طلب إليه، فى ١٩ سبتمبر ١٦٤٨ ارتقى مع بعض أصحابه « بوى ددوم » ؛ الذى يرتفع خمسة آلاف قدم فوق مدينة كليرمون — فيران، وهناك ارتفع الزئبق إلى ثلاث وعشرين بوصة فى الأنبوبة، بينما ارتفع عند سفح الجبل إلى ست وعشرين، وهللت أوربا كلها للتجربة لأنها أثبتت نهائياً مبدأ البارومتر وقيمته.

وتلقى بسكال بفضل شهرته عالماً (١٦٤٨) نداء مثيراً من مقامر طلب إليه أن يضع قانوناً لرياضيات الحظ أو الصدفة، فقبل التحدى، واشترك مع فيرما فى وضع حساب الاحتمالات، الذى ينتفع به الآن كثيراً فى جداول التأمين من المرض والموت. ولم تبد عليه فى هذه المرحلة من نموه أى بادرة بأنه سينقل يوماً ما ولاءه من العلم إلى الدين، أو يفقد إيمانه فى المنطق والتجريب، وواصل العمل عشر سنين فى المعضلات العلمية لاسيما الرياضية منها، وفى تاريخ متأخر (١٦٥٨) عرض جائزة من مجهول فى تربيع الدويرى — وهو الخط المنحنى الذى تحدثه نقطة على دائرة تدحرج على خط مستقيم فوق سطح مستو. وتقدم بالحلول واليس، وهويجنز، ورن، وغيرهم، ونشر بسكال بعد ذلك حله، تحت اسم مستعار، وأعقب ذلك جدل سلك فيه المتنافسون، ومنهم بسكال، مسلكا لم يتسم بالكثير من الفلسفة.

وتسلط على حياته خلال ذلك مؤثران أساسيان، المرض والجانسنية. ذلك أنه منذ كان فتى فى الثامنة عشرة عانى من علة عصبية قل أن تركته يوماً بغير ألم. وفى ١٦٤٧ أقعدته إصابة بالشلل لم يستطع بسببها المشى إلا إذا توكأ على عكازين. كان رأسه يصدع، وأمعاؤه تلتهب، وساقاه وقدماه دائمة البرودة والحاجة إلى الوسائط المرهقة لتنشيط دورته الدموية، وكان يلبس الجوارب الطويلة المنقوعة فى البراندى التماساً لدفء قدميه.

وكان مما حمـــله على الانتقال إلى باريس مع جاكلين أن يجد علاجاً طبياً أفضل ، وتحسنت صحته ، ولـكن جهازه العصبي كان قد لحق به أذى مستديم. فأصبح منذ ذلك الحين عرضة لأوهام ازداد عمقها على الأيام حتى أثرت فى خلقه وفلسفته ، فبات سريع الإنفعال ، فريسة لنوبات من الغضب المتكبر العاتى ، وقل أن أشرق وجهه بابتسامة(٢٣) .

وكان أبوه طيله حياته كاثوليكياً تقياً بل صارماً وسط شواغله العلمية ، وقد علم أبناءه أن الإيمان الديني أثمن ما يملكون ، وأنه شيء بعيد كل البعد عن متناول أو عن حكم قوى التفكير الضعيفة التى يملكها البشر . وفى روان أصيب الأب بجرح خطير فعالجه طبيب جانسنى بنجاح ، ومن هذا الاتصال اتخذ إيمان الأسرة مسحة جانسنية ، فلما انتقل بليز وجاكلين إلى العاصمة كثر اختلافهما إلى القداس فى البور — رويال — د — بارى ، ورغبت جاكلين فى دخول الدير راهبة ، ولـكن أباها لم يستطع أن يروض نفسه على السماح لها بالخروج من حياته اليومية ، ولـكنه مات عام ١٦٥١ ، وما لبثت جاكلين أن ترهبت فى البور — رويال — دى — شان ، بعد أن حاول أخوها عبثاً أن يثنيها عن عزمها .

وتنازعا حيناً على تقسيم ميراثهما ، فلما سوى النزاع وجد بليز نفسه رجلا غنياً حراً - وتلك حال مجافية لحياة التقوى ، فاتخذ لنفسه بيتاً فاخر الأثاث ، واستكثر من الخدم ، وجاب باريس فى مركبة تجرها خيول أربعة أو ستة(٢٤) . وأعطاه شفاؤه المؤقت شعوراً خداعا بالنشاط والخفة حرفه من التقوى إلى اللذة . وعلينا ألا ننفسه على تلك السنوات القليلة التى قضاها « فى العـــالم » (١٦٤٨ — ٥٤) ، يستمتع بصحبة ظرفاء باريس وألعابها وحسانها ، ويطارد فى برهة مثيرة بأوفرن سيدة ذات جمال وثقافة ، وصفها بـ — « سافو الريف(٢٥) » . وحوالى هـذه الفترة كتب « أحاديث فى آلام الحب » ويلوح أنه فكر فى الزواج — الذى سيصفه فى تاريخ لاحق بأنه « أحط ظروف الحياة المباحة لمسيحى(٢٦) » . وكان بعض أصحابه

نخبة جمعوا بين الحريتين ، حرية الأخلاق وحرية الفكر ، ولعلهم هم الذين أثاروا اهتمام بسكال بمونتينى ، الذى تغلغلت الآن « مقالاته » فى حياته . وأكبر الظن أن تأثيرها الأول عطفه نحو التشكك الدينى .

وبختته جاكلين حين نمى إليها نبأ عبثه الجديد ، وصلت لأجل صلاح حاله. وكان من خصائص طبيعته العاطفية أن تستجيب لصلواتها إثر حادث وقع له. ذلك أنه بينما كان ذات يوم يركب عربته فوق البون دنوبى جسر نيللى ، جمحت الخيل واندفعت فوق الحاجز إلى نهر السين . وكادت العربة أن تتبع الخيل ، ولكن العنان انقطع لحسن الحظ ، وتعلقت المركبة بنصفها فوق الحافة . وخرج منها بسكال وأصحابه ، ولكن الفيلسوف المرهف الحس أغمى عليه لفرط خوفه من الموت الداهم ، وظل برهة غائباً عن رشده . فلما أفاق شعر بأنه رأى الله فى رؤيا . وفى نشوة من الخوف والندم وعرفان الجميل سجل رؤياه على رق راح يحمله منذ تلك اللحظة مخيطا فى بطانة سترته : « السنة ١٦٥٤ بعد الميلاد ، الأثنين ٢٣ نوفمبر ... من نحو السادسة والنصف مساء إلى النصف بعد منتصف الليل . أن الاله القديم ، إله إبراهيم ، وإله إسحق ، وإله يعقوب ، لا إله الفلاسفة والعلماء . اليقين ، اليقين ، الوجدان ، الفرح ، السلام . إله يسوع المسيح ... لن يجده الإنسان إلا بالطرق التى يعلمها الإنجيل . ياسمو النفس الإنسانية ، أيها الآب العادل ، أن العالم لم يعرفك قط ، ولكنى عرفتك . إنه الفرح ، الفرح ، دموع الفرح ... يا إلهى ، هل أنت تاركى ؟ يسوع المسيح ... لقد فصلت عنه ، وهربت منه ، وتخليت عنه ، وصلبته . ليتنى لا أفارقه أبداً ، إنها المصالحة الحلوة الكاملة(٢٧) » .

وعاود زياراته للبور — رويال ولجاكلين ، وشرح صدرها بحالته النفسية الجديدة ، حالة التواضع والتوبة . واستمع إلى عظات أنطوان سانجلان . وفى ديسمبر ١٦٥٤ أصبح عضوا فى جماعة البور — رويال(٢٨). وفى يناير كان له هناك حديث طويل مع سامى ، الذى آلى على نفسه أن

يقنعه بسطحية العلم وعقم الفلسفة . وآنس آرنو ونيكول من العضو الجديد حماسة فى الاهتداء وبراعة فى التعبير الأدبى تبدوان وكأنهما اداة وضعتها العناية فى أيدى الجماعة للدفاع عن البور — رويال ضد اعدائه . فطلبا إليه أن يخصص قلمه للرد على اليسوعيين الذين كانوا يحاولون تصويو الجانسنية على انها خطيئة . وأستجاب للطلب فى ذكاء وقوة بلغا مبلغا جعل جماعة اليسوعيين تشكو إلى اليوم من وخز بسكال الأليم .

ب ـ الرسائل الأقليمية

فى ٢٣ و ٢٦ يناير ١٦٥٦ نشر بسكال الرسالتين الأولى والثانية مما سماه « رسائل كتبها لوى دمونتالت » (وهو اسم مستعار) « إلى صديق فى الأقاليم ، وإلى الآباء اليسوعيين المبجلين ، عن أخلاقياتهم وسياساتهم » . وكان إطارها ذكيا ، فقد زعم إنها تقرير من باريس إلى صديق فى الأقاليم عن المسائل الخلقية واللاهوتية التى كانت يومئذ تثير الأوساط الفكرية والدينية فى العاصمة . وقد زود آرنو ونيكول بسكال بالحقائق والمراجع . أما هو فقد أبدع ذلك الأسلوب الأدبى الذى استشرف مستوى جديداً فى النثر الفرنسى ، فقـــد توافرت لبسكال حماسة المؤمن الجديد وذكاء رجل الدنيا وتهذيبه .

أما الرسائل الأولى فقد التمست التأييد العام لآراء الجانسنيين فى النعمة الالهية والخلاص ، وهى الآراء التى دافع عنها آرنو من قبل ، وقد قصد بها أن تؤثر فى السوربون لتعارض الاقتراح بطرد آرنو . وقد فشلت فى هذا ، إذ جرد آرنو رسميا من لقبه وطرد (٣١ يناير) . وحفز الفشل بسكال وآرنو إلى الهجوم على اليسوعيين لأنهم يقوضون الفضيلة بما يعيب آباء اعترافهم من تحلل ، وما يشوب فتاواهم من ثغرات . وقد نقبا فى مؤلفات إيسكوبار وغيره عن اليسوعيين ونددا بمبادىء « الاحتمالية » و « التوجيه بالنيه » و « التحفظ العقلى » ، وحتى بتوفيق المرسلين اليسوعيين بين

اللاهوت المسيحي وعباده الصينيين لأسلافهم(٢٩) . وإن لم يتهما اليسوعيين صراحة بتبرير الوسائط لبلوغ الغايات . وكان هذا المهدى يزداد حماسة كلما توالت الرسائل وكشف له آرنو عن المزيد من فتاوى إيسكوبار . وبعد الرسالة العاشرة أقلع عن أكذوبة الباريسى كاتب الرسائل للإقليمى ، وأماط اللثام عن شخصه ، ووجه الخطاب إلى اليسوعيين رأساً فى بلاغة تضطرم سخطا ، وذكاء يفيض تهكما . وكان ينفق أحياناً عشرين يوماً فى تحرير رسالة واحدة ، ثم يهرع بها إلى المطبعة قبل أن يفتر اهتمام الجمهور . وقد اعتذر عن طول الرسالة السادسة عشرة بعذر فريد فى بابه ، إذ قال «لم يتسع لى الوقت لاختصارها(٣٠) » . وفى الرسالة الثامنة عشرة والأخيرة (٢٤ مارس ١٦٥٧) تحدى البابا نفسه. ذلك أن البابا الإسكندر السابع أصدر (١٦ أكتوبر ١٦٥٦) تنديدا آخر بالجانسنية ، فذكر بسكال قراءه بأن حكم البابا عرضة للخطأ ، كما أخطأ فى حالة جاليليو (٣١) (وذلك شعور بسكال). وأدان البابا الرسائل (٦ سبتمبر ١٦٥٧) ولكن فرنسا المثقفة كلها قرأتها.

أكانت الرسائل منصفة لليسوعيين ؟ أنقلت المختارات عن الكتاب اليسوعيين نقـــلا أمينا ؟ قال عقلانى مثقف « صحيح ولا ريب أن بعض العبارات المعدلة حذفت أحيانا دون موجب ، وأن عبارات أخرى ترجمت ترجمة خاطئة ، وأن ضغط الفقرات الطويلة فى جمل قصيرة يشعرك فى بعض الحالات بأن فى هذا إجحافا بالمؤلف » ثم يقول « ولكن هذه الحالات قليلة وغير هامة نسبيا»(٣٢) وهناك الآن إجماع على أن المختارات دقيقة فى جوهرها (٣٣) على أنه لا بد من التسليم بأن بسكال انتزع أشد فقرات بعض المفتين إزعاجاً وشبهة من سياقها ، وقاد شطراً من الجمهور إلى رأى فيه غلو كثير ، مؤداه أن هؤلاء الفقهاء اللاهوتيين يتآمرون على هدم أخلاق العالم المسيحى . وقد أطرى فولتير براعة الرسائل بوصفها أدبا ، ولكنه رأى أن « الكتاب كله مبنى على أساس زائف . فقد نسب المؤلف فى حذق إلى الجماعة اليسوعية

كلها الآراء المتطرفة التى قال بها بعض اليسوعيين الأسبان والفلمنك(٣٤) » ، الذين خالفهم كثير من اليسوعيين . وأسف دللبير لأن بسكال لم يتهكم بالجانسنيين أيضا ، لأن « تعاليم جانسن وسان سيران المروعة كانت تتيح على الأقل مجالا للسخرية لا يقل عما أتاحته التعاليم الطيعة التى نادى بها موليا وتامبوران وفاسكوز(٣٥) » .

وكان تأثير « الرسائل » هائلا . صحيح أنها لم تخمد لتوها شوكة اليسوعيين — ومن المؤكد أنها لم تنتقص من سلطانهم على الملك — ولكنها فضحت شطط المفتين فضحا حمل الاسكندر السابع نفسه على إدانة «التحلل» ، رغم مواصلته معارضة الجانسنية ، وعلى الأمر بمراجعة نصوص الفتاوى (١٦٦٥ — ٦٦)(٣٦) . و « الرسائل » هى التى أضفت على كلمة الافتاء الدينى « Casuistry » مدلول التشقيقات الخداعة المظهر التى تدافع عن الأفعال أو الأفكار الخاطئة . ثم إنها أضافت آية من آيات الأسلوب إلى ذخيرة الأدب الفرنسى . وكأن فولتير قد عاش قرنا قبل فولتير . فهنا ذكاء فولتير المرح ، وتهكمه البتار ، وفكاهته الشكاكة ، وقدحه العنيف ، وفى الرسائل اللاحقة ذلك الاستنكار الحار للظلم ، الذى أنقذ فولتير من أن يكون موسوعة سخرية وتهكم . وقد وصف فولتير نفسه الكتاب بأنه « خير ما كتب وظهر فى فرنسا إلى الآن »(٣٧) ، وكان رأى أنفذ النقاد قاطبة وأكثرهم رهافة وتمييزا أن بسكال « ابتكر النثر الرائع فى فرنسا(٣٨) » وحين سئل بوسويه أى كتاب كان يؤثر أن يؤلف لو لم يؤلف كتابه قال ، إنه رسائل بسكال الإقليمية(٣٩) .

٥ — فى الدفاع عن الإيمان

عاد بسكال إلى باريس فى ١٩٠٦ ليشرف على نشر « الرسائل » ، وعاش هناك طوال السنوات الست الباقية من عمره . على أنه لم يهجر العالم ، ففى سنة

موته ذاتها شارك فى تنظيم خدمة منتظمة بالمركبات فى العاصمة ـ وهى البذرة لشبكة الأمنوبيسات الحالية . ولكن حدثين وقعا له جددا تقواه ، وحملاه على أن يتوج أعماله بكتاب جديد أسهم به فى الأدب والدين . ذلك أنه فى ١٥ مارس ١٦٥٧ حصل اليسوعيون من الملكة الأم على أمر بإغلاق مدارس الموحدين وحظر قبول المزيد من الأعضاء فى البور ـ رويال . وأطيع الأمر فى هدوء ، وأرسل الأطفال ـ وكان من بينهم راسين ـ إلى بيوت الأصدقاء ، وتفرق المعلمون محزونين . وبعد تسعة أيام (وهو تاريخ صدور آخر الرسائل الإقليمية) وقع مابدا معجزة فى كنيسة دير الراهبات الذى تكدر صفوه . ذلك أن ابنة أخت بسكال البالغة من العمر تسع سنوات ، واسمها مارجريت بيرييه ، كانت تشكو من ناسور دمعى مؤلم يرشح صديدا كريها من العينين والأنف . وأهدى أحد أقرباء الأم أنجليك للبور ـ رويال شوكة زعم هو وغيره أنها أخذت من إكليل الشوك الذى عذب به المسيح . وفى ٢٤ مارس وضعت الراهبات الشوكة على مذبحهن فى احتفال مهيب وسط ترتيل المزامير . ولمست كل منهن الأثر المقدس بدورها ، ولما رأت إحداهن مارجريت بين العابدات أخذت الشوكة ولمست بها قرحة الفتاة . وروى أن ما جرت أعربت ذلك المساء عن دهشتها لأن عينها لم تعد تؤلمها ، وأدهش أمها ألا ترى أثرا للناسور ، وقرر طبيب دعى لفحص الفتاة أن الصديد والورم قد اختفيا . وأذاع هو ، لا الراهبات ، نبأ هذا الذى سماه شفاء معجزا . ووقع سبعة أطباء آخرون كانوا على علم سابق بناسور مارجريت بيانا قرروا فيه أن معجزة ـ فى رأيهم ـ قد حدثت . وبحث موظفو الاسقفية الأمر ، وانتهوا إلى نفس النتيجة ، وأذنوا بإقامة قداس شكر لله فى البور — رويال . وتقاطرت جماهير المؤمنين على الدير ليروا الشوكة ويقبلوها ، وهللت باريس الكاثوليكية كلها للمعجزة ، وأمرت الملكة الأم بالكف عن كل اضطهاد للراهبات . وعاد الموحدون إلى ليجراج . (فى عام ١٧٢٨ أشار البابا بندكت الثالث عشر إلى هذا الحدث على أنه دليل

على أن عصر المعجزات لم ينته) . أما بسكال فقد صنع لنفسه شعار نبالة كان عبارة عن عين يحيط بهـا إكليل من الشوك ، وقد كتب عليه Scio cui credidi — « أعرف من صدقت(٤٠) ».

وعكف الآن على كتابة دفاع مفصل عن الإيمان الديني يكون بمثابة وصيته الأخيرة . ولكن قصارى ما وجد فى نفسه القدرة عليه هو أن يدون فى إيجاز خواطر منفصلة يجمع بينها فى ترتيب اجتهادى ولكنه قوى. ثم عاودته أوجاعه القديمة (١٦٥٨) ، فى شدة أعجزته إلى النهاية عن أن يضفى على هذه للذكرات تسلسلا متماسكا أو شكلا بنائيا . فلما مات قام صديقه الدوق دروانيه وعلماء البور — رويال بتحرير ونشر هـذه المادة وسموها « خواطر المسيو بسكال عن الدين وغيره من المسائل (١٦٧٠) » . وقد خشوا أن تفضى هذه «الخواطر» المبتورة التى خلفها بسكال إلى التشكك لا إلى التقوى ، ومن ثم أخفوا الأجزاء المتشككه ، وأدخلوا تعديلا على بعض ما بقى مخافة أن يسىء إلى الملك أو الكنيسة لأن اضطهاد البور — رويال كان قد توقف فى تلك الفترة ، وكره المحررون تجدد الجدل . ولم تنشر « خواطر » بسكال Pensées فى نصها الكامل الموثوق إلا فى القرن التاسع عشر .

ولو شئنا أن نغامر بفرض ترتيب عليها لجعلنا نقطة بدايتها فلك كوبرنيق. ونحن نشعر ثانية — إذ نصغى إلى بسكال — بالعظمة الهائلة التى كان فلك كوبرنيق وجاليليو يكيلها للمسيحية التقليدية :

« ليتأمل الإنسان الطبيعة كلها فى جلالها الكامل السامى ، ليقص عن بصره الأشياء الوضيعة التى تحيط به ، ولينظر إلى ذلك النور للتوهج الذى وضع كأنه مصباح ابدى ينير العالم ، ولتبد الأرض له مجرد نقطة داخل الدائرة الشاسعة التى يرسمها ذلك النجم ، وليأخذه العجب من أن هذا المحيط الهائل إنما هو نقطة ضئيلة من زاوية النجوم التى تتحرك فى قبـة السماء .

فإذا توقف بصرنا عند هذا الحد ، فليجاوزه الخيال ... فكل هذا العالم المرئى ليس إلا عنصرا لايدرك فى صدر الطبيعة العظيم . ولا يستطيع أى تفكير أن يمتد إلى هذا المدى ... إنها كرة لانهائية مركزها فى كل مكان ، ومحيطها فى غير مكان(٤٢). هذا أكثر مظهر قابل للإدراك من مظاهر قدرة الله ، حتى أن خيالنا يتوه فى هذا الخاطر » .

ثم يضيف بسكال فى سطر شهير مطبوع بحساسيته الفلسفيه ، « ان الصمت الأبدى الذى يلف هذا الفضاء اللانهائى يخيفنى(٤٣) » .

ولكن هناك لانهائية أخرى — وتلك هى لانهائية صغر الذرة « التى لاتقبل الانشطار ، وقبولها النظرى للانقسام قبولا لاحد له ، فمهما كانت ضآلة الحد الأدنى الذى نختزل به أى شىء ، فإننا لانملك إلا الاعتقاد بأنه هو أيضا له أجزاء أصغر منه . وعقلنا يتذبذب فى حيرة وارتياع بين الشاسع غير المحدود ، والدقيق غير المحدود .

« إن من يتأمل نفسه على هذا النحو تخيفه نفسه ، وإذا أدرك أنه معلق ... بين هاويتى اللانهائية والعدم ، ارتعد فرقا ... وبات أميل إلى تأمل هذه العجائب فى صمت منه إلى ارتيادها بغرور . فما الإنسان فى الطبيعة ، بعد كل شىء ... ؟ انه العدم إذا قيس بغير المحدود ، وهو كل شىء إذا قيس بالعدم ، إنه وسط بين العدم والكل . وهو بعيد كل البعد عن إدراك الطرفين ، فنهاية الأشياء وبدايتها أو أصلها ، يلفهما سر لاسبيل إلى استكناهه ، وهو عاجز على السواء عن رؤية العدم الذى أخذ منه ، واللانهائى الذى يغمره(٤٤). (*)

(*) يقول سانت بيف « ليس فى اللغة الفرنسية صفحات أروع من الخطوط البسيطة الصارمة التى تحتويها هذه الصورة التى لانظير لها »(٤٥) .

فالعلم إذن ما هو إلا ادعاء غبي . فهو مبنى على العقـــل ، المبنى على الحواس ، التى تخدعنا بعشرات الطرق . وهو محدود بالحدود الضيقة التى تعمل حواسنا داخلها ، ويقصر عمر الجسد قصراً قابلا للفساد . وإذا ترك العقل لذاته لم يستطع أن يفهم — أو يعطى أساساً مـكينا للفضيلة ، أو الأسرة ، أو الدولة ، فـكيف بادراك طبيعة العالم ونظامه الحقيقيين ، فضلا عن فهمه لله . وفى العرف ، لا بل فى الخيال والأسطورة ، حـكمة أكثر مما فى العقل و « أحكم العقول يتخذ تلك المبادىء ، التى أدخلها خيال الإنسان بتعجل فى كل مكان ، مبادىء له[٤٦] » وهناك نوعان من الحـكمة : حـكمه الجماهير البسيطه « الجاهلة » ، التى تعيش بحـكمه التقاليد الموروثة والخيال (أى الطقوس والأساطير) ، وحـكمة الحـكيم الذى نفذ إلى صميم العلم والفلسه ليدرك جهله[٤٧] . إذن « لاشىء أروح للعقل من أن ينبذ العقل » و « الاستخفاف بالفلسفه ملاك الفيلسوف الأصيل[٤٨] » .

ومن ثم رأى بسكال أنه ليس من الحـكمة إقامة الدين على العقل ، كما حاول حتى بعض الجانسنيين ، أن يفعلوا . فالعقل لايستطيع أن يثبت وجود الله ، ولا الخلود ، لأن الأدلة فى الحالين شديدة التنافض . كذلك لا يصلح الـكتاب المقدس أساسا نهائيا للإيمان ، لأنه حافل بالفقرات الملتبسة أو الغامضة ، وربما كان للنبوءات التى يفسرها الأتقياء على أنها تشير إلى المسيح دلالة مختلفة[٤٩] . أضف إلى ذلك أن الله فى الـكتاب المقدس يتـكلم بالأرقام ، التى يضللنا مدلولها الحرفى ، والتى لايدرك معناها الحقيقى إلا من وهبوا النعمة الآلهية . « أننا لن نفهم شيئاً من أعمال الله مالم نؤمن بهذا المبدأ ، وهو أنه تعالى يشاء أن يعمى البعض وينير بصائر البعض[٥٠] . (وهنا يبدو أن بسكال يقبل حرفياً قصة يهوه وهو يقسى قلب فرعون) .

ولو اعتمدنا على العقل لوجدنا غير المفهوم أينما تلفتنا . فمنذا الذى يستطيع أن يفهم ، فى الإنسان ، ذلك الاتحاد والتفاعل بين جسد واضح

المادية وذهن واضح اللامادية ؟ «فليس هناك شيء أشد استحالة على التصور من أن تعى المادة نفسها(٥١) » . إنهم الفلاسفة الذين ملكوا أهواءهم — « وأى مادة تستطيع أن تفعل هذا (٥٢)؟ » . وطبيعة الإنسان ، التى يمتزج فيها الملاك بالوحش امتزاجاً شديداً (٥٣) ، تكرر التناقض بين العقل والجسد ، وتذكرنا بالكمير الذى زعمت الأساطير اليونانية أنه عنزة لها رأس أسد وذيل ثعبان .

« يا لهذا الإنسان من كمير! ياله من بدعة ، ووحش ، وفوضى ، وتناقض ، ومعجزة ! هذا الحكم فى كل الأشياء ، ونموذج الغباء فى الأرض ؛ مستودع الحق ، وبالوعة الضلال والشك ؛ مفخرة الكون ونفايته . فمنذا الذى يحل لنا هذا اللغز المعقد(٥٤)؟ » .

ان الإنسان — من الناحية الخلقية — لغز فامض . فكل ضروب اللؤم تبدو مستترة فيه . «ما الإنسان إلا مخلوق خداع للاظهر ، كذوب ، منافق ، مع نفسه ومع غيره(٥٥) » . « كل الناس بطبيعتهم يكره بعضهم بعضاً ، ولن تجد أربعة أصدقاء فى العالم(٥٦) » . « ما أفرغ قلب الإنسان وما أحفله بالقذر »(٥٧) ثم يا لغروره الذى لا قرار له ولا شبع ، «ما كنا لنركب البحر أبداً لولا حلمنا بأننا سوف نروى قصتنا . . . أننا نفقد الحياة مغتبطين شريطة أن يتحدث الناس بما فعلنا . . . وكل الناس ، حتى الفلاسفة ، يتمنون أن يكون لهم معجبون(٥٨) » . ومع ذلك فإن من جوانب عظمة الإنسان أنه من شره ، وكرهه ، وغروره ، أنشأ دستورا من القوانين والأخلاق ليسيطر على شره ، واشتق من شهوته مثلا أعلى فى الحب(٥٩) .

وشقاء الإنسان لغز آخر . فلم شقى الكون هذا الشقاء الطويل لينجب نوعا من الخليقة شديد الهشاشة فى سعادته ، كثير التعرض للألم فى كل عصب ، وللحزن فى كل حب ، وللموت فى كل حياة؟ ومع ذلك فإن «جلال الإنسان عظيم فى معرفته أنه شقى(٦٠) » .

«ما الإنسان إلا قصبة ، وهى أوهى ما فى الطبيعة ، ولكنه قصبة مفكرة .

والكون كله لا حاجة به لأن يتسلح لكى يسحقه ، فنفخة بخار ، أو قطرة ماء ، تكفى لقتله — ولكنه ، بعد أن يسحقه الكون ، لا يزال أنبل من هذا الذى يقتله ، لأنه يعرف أنه مفارق الحياة ، أما الكون فلا يعرف شيئاً عن انتصاره على الإنسان(٦١) » .

وليس من هذه الألغاز لغز يجد فى العقل جواباً له . ولو ركنا إلى العقل وحده لحكمنا على أنفسنا بـ « ببروية » تتشكك فى كل شىء إلا الألم والموت ، والفلسفة لا تستطيع على أحسن الفروض إلا أن تكون تبريراً عقلانياً للهزيمة . ولكنا لا نستطيع أن نؤمن بأن قدر الإنسان هو كما يراه العقل — أن يكافح ، ويتعذب ، ويموت ، بعد أن ينجب آخرين ليكافحوا ، ويتعذبوا ، ويموتوا ، جيلا بعد جيل ، فى افتقار للهدف ، وغباوة ، وحقارة هائلة . فنحن فى قرارة نفوسنا نشعر بأن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً ، وبأنه تجديف ما بعده تجديف أن نظن أن الحياة والكون بلا معنى . فالله ومعنى الحياة يجب أن يشعر بهما القلب لا العقل . « فإن للقلب مبرراته التى لا يعرفها العقل(٦٢) . » ، وخيراً نفعل أن أصغينا إلى قلوبنا وإن « وضعنا إيماننا فى الوجدان(٦٣) » . ذلك أن كل إيمان ، حتى بالأمور العملية ، إنما هو ضرب من الإرادة ، وتوجيه للانتباه والرغبة » (إرادة الإيمان) . والتجربة الصوفية أعمق من شهادة الحواس أو حجج العقل .

أى جواب إذن عند الوجدان يجيب به عن الغاز الحياة والفكر ؟ الجواب هو الدين . فالدين وحده يستطيع أن يرد للحياة معناها ، وللإنسان نبله ، وبدونه نتخبط أعمق حتى من تخبطنا الأول فى إحباط عقلى وعقم مميت . فالدين يعطينا كتابا مقدساً ، والكتاب ينبئنا بسقوط الإنسان من النعمة ، وهذه الخطيئة الأصلية هى دون غيرها التى تستطيع أن تفسر ذلك الجمع الغريب فى الطبيعة البشرية بين الكره والحب ، وبين الشر الوحشى واشتياقنا للخلاص ولله . فاذا سمحنا لأنفسنا بأن نؤمن (مهما بدت سخافة

هذا الإيمان للفلاسفة) بأن الإنسان بدأ بالنعمة الإلهية ، وأنه فقدها بالخطيئة ، وأنه لا خلاص له إلا بالنعمة الإلهية عن طريق المسيح المصلوب ، وجدنا بعد هذا سلاماً عقليا لا يوهب للفلاسفة أبدا . والذى لايستطيع الإيمان ملعون ، لأنه يعلن بكفره أن الله لم يشأ أن يمنحه النعمة .

والإيمان رهان حكيم . وهب أن الإيمان لا يمكن إثباته ، فأى ضير إن قامرت على حقيقته ثم اتضح بطلانه ؟ « لزام عليك أن تراهن ، وليس لك فى هذا خيار ... فلتوازن بين المكسب والخسارة فى الرهان على وجود الله ... أنك إن كسبت كسبت كل شىء ، وان خسرت لم تخسر شيئاً . فراهن إذن دون تردد على أنه تعالى موجود(٦٤) ». فاذا وجدت أول الأمر أن الإيمان صعب عليك فاتبع عادات وطقوس الكنيسة كأنك تؤمن حقا . « تبرك بالماء المقدس ، واطلب تلاوة القداديس ، وهلم جرا ، وهذا كفيل بأن يجعلك تؤمن بطريقة بسيطة طبيعية ، وبأن يهدئك » — سيهدى من عقلك المغتر بقدرته النقادة(٦٥) . واعترف وتناول القربان ، وستجد فى هذا راحة وقوة(٦٦) .

ونحن نظلم هذا الدفاع التاريخى إذا تركناه يختتم على هذه النغمة غير البطولية . فلنا أن نشق بأن بسكال حين آمن لم يؤمن كأنه مقامريل كنفس حيرتها ود وختها الحياة ، كانسان أدرك فى تواضع أن عقله الذى أذهل ذكاؤه الصديق والعدو ، ليس كفؤا للكون ، ووجد فى الإيمان السبيل الوحيد ليضفى على ألمه المعنى والمغفرة . يقول سانت — بيف « ان بسكال رجل مريض ، وعلينا أن نذكر هذا على الدوام ونحن نقرؤه(٦٧) » ولكن بسكال لو ووجه بهذا الراى لأجاب : السنا كلنا مرضى ؟ فليرفض الإيمان كل من اكتملت له السعادة . ليرفضه كل من لم يقنع بمعنى فى الحياة اكثر من انها مسار عاجز من ميلاد قذر إلى موت إليم .

« تصور نفرا من الناس يرسفون فى الأغلال وقد حكم عليهم جميعا

بالموت ، وفى كل يوم يشنق بعضهم على مرأى من الباقين، والباقون يتبينون حالهم فى حال زملائهم ، ويتبادلون نظرات الحسرة واليأس ، وينتظر كل منهم دوره . هذه صورة لحالة الإنسان(٦٨) » .

فكيف السبيل إلى التعويض عن هذه المذبحة البشعة التى نسميها التاريخ إلا بالإيمان بأن الله سيصحح الأخطاء كلها فى النهاية ، سواء استند هذا الإيمان إلى دليل أو لم يستند ؟ .

وقد تحمس بسكال فى محاجته لأنه لم يفق قط إفاقة حقيقية من الشكوك التى أوحى بها إليه موتتينى ، وملحدو « السنوات التى قضاها فى العالم » ، وحياد الطبيعة القاسى بين « الشر » و « الخير » .

« ذلك ما أراه وما يقض مضجعى . فأينما تلفت لم أجد غير الغموض والابهام . ولا تقدم لى الطبيعة إلا ما يحتمل الشك والقلق . فلو أننى لم أر علامات على وجود إله لثبت على الإنكار . ولو رأيت آثار الخالق فى كل مكان لسكنت إلى الإيمان فى هدوء وسلام . ولكنى فى حالة يرثى لها لأننى أرى أكثر كثيراً مما يبرر إنكار وجوده تعالى ، وأقل كثيراً مما يطمئننى على وجوده . ولقد طالما تمنيت أن تعلن الطبيعة عن وجوده دون لبس أو غموض ما دام هذا الإله حافظها(٦٩) » .

وحالة القلق العميق هذه ، والقدرة المعطلة على رؤية الجانبين ، هى التى تجعل بسكال يستهوى المؤمنين والشاكين على السواء . فلقد شعر هذا الرجل بغيظ الملحد من الشر ، وبثقة المؤمن فى انتصار الخير ، ولقد عبر من تذويمات موتتينى وشارون الذهنية إلى التواضع المغتبط الذى أحس به القديسان فرانسيس الأسيسى وتوماس أكمبيس . وهذه الصرخة المنبعثة من أعماق الشك ، وهذه الصياغة لإيمان ضد الموت ، هما اللذان يجعلان « خواطر » بسكال أبلغ الكتب قاطبة فى النثر الفرنسى . لقد أصبحت الفلسفة أدبا للمرة الثالثة فى القرن السابع عشر، لا فى تركيز بيكون الهادى،

ولا فى ألفة ديكارت السارة ، بل فى القوة العاطفية لشاعر يحس بالفلسفة ، ويكتب لقلبه بدمه . فى قمة العصر الكلاسيكى علا هذا النداء الرومانسى ، وبلغ من القوة ما أتاح له أن يعمر بعد بوالو وفولتير ، وأن يسمعه عبر قرن من الزمان روسو وشاتوبريان . فهنا ، فى صبيحة عصر العقل ، وفى عقود هوبز وسبينوزا ذاتها ، وجد العقل منازلا له فى رجل محتضر .

روت مدام بيرييه ، شقيقة بسكال ، أنه كان فى سنيه الأخيرة يعانى من « علل مستديمة متفاقمة(٧٠) » وانتهى به الأمر إلى الرأى بأن « المرض هو الحالة الطبيعية للمسيحيين(٧١) » . وكان أحيانا يرحب بآلامه لأنها تصرفه عن المغريات . قال « إن ساعة من الألم تعلم أفضل من كل الفلاسفة مجتمعين(٧٢) » . وقد هجر كل اللذات ، وعكف على ممارسة النسك ، وجلد نفسه بحزام ثبتت فيه مسامير من حديد(٧٣) . ووبخ مدام بيرييه لأنها تسمح لأبنائها بعناقها . وعارض فى زواج ابنتها قائلا : « إن حالة الزوجية ليست خيرا من الوثنية فى نظر الله(٧٤) » . ولم يسمح لإنسان فى حضرته أن يتحدث عن جمال المرأة .

وفى عام ١٦٦٢ ، آوى أسرة فقيرة فى بيته صدقة من صدقاته الكثيرة . فلما أصيب أحد الأطفال بالجدرى انتقل بسكال إلى بيت شقيقته بدلا من أن يطلب إلى الأسرة أن تغادر بيته . ولم يمض طويل وقت حتى لزم فراشه وقد حطمته الآلام المعوية . وكتب وصيته ، فترك نصف ثروته تقريبا للفقراء . واعترف لكاهن ، وتناول القربان الأخير ، ثم لفظ أنفاسه إثر تقلصات عنيفة ، فى ١٩ أغسطس ١٦٦٢ وهو لا يجاوز الأربعين . ولما شرحت جثته وجد أن معدته وكبده مريضتان ، وأن فى أمعائه قرحا(٧٥) . وقال الأطباء أن مخه « ضخم الحجم جدا ، وأن مادته جامدة مكثفة » ولكن خطا واحدا فقط من خطوط الاتصال بين عظام الجمجمة هو الذى كان مقفلا قفلا سليما ، ولعل هذا هو السر فى نوبات الصداع الرهيبة التى ابتلى بها .

ووجد على لحاء المخ منخفضان « كبيران كأنهما صنعا بأصابع وضعت فى الشمع »(٧٦) وقد دفن فى كنيسة أبرشيه سانت اتيين — دومون .

٥ — البور - رويال : ١٦٥٦ — ١٧١٥

شددت « الرسائل الاقليمية » من عزم اليسوعيين والأساقفة على قمع الجانسنية باعتبارها بروتستنتية مقنعة . فأصدر البابا الاسكندرية السابع (١٦ أكتوبر ١٦٥٦) استجابة لإلحاح الأساقفة الفرنسيين مرسوماً بابوياً يلزم جميع رجال الكنيسة الفرنسيين بالتوقيع على الصيغة التالية :

« إنى أخضع بإخلاص لدستور البابا أنوسنت العاشر » المؤرخ ٣١ مايو ١٦٥٣ » حسب معناه الحقيقى الذى حـــدده دستور أبينا الأقدس البابا الإسكندر السابع المؤرخ ٦ أكتوبر ١٦٥٦ » وأقر بأنى ملتزم فى ضميرى بطاعة هذين الدستورين » وأدين بقلبى وفى التعليم الوارد فى قضايا كورنيلس جانسن الخمس المحتواة فى كتابه المعنون « أوغسطينوس » .

وامتنع مازاران عن فرض التوقيع على هذه الصيغة » ولكن فى ١٣ أبريل ١٦٦١ » عقب موت مازاران » أذاع لويس الرابع عشر الأمر » وقدم وكيل أسقفية من أصدقاء الجماعة لهذه الصيغة ببيان توفيقى » فوقعها آرنو وللتوحدون فى هـــذه الصورة » وفصحوا راهبات البور - رويال بالحذو حذوهم » ولكن الأم أنجليك — التى كانت طريحة الفراش لإصابتها بالاستسقاء — رفضت التوقيع وثبتت على الرفض إلى أن ماتت فى السبعين فى ٦ أغسطس ١٦٦١ » وكذلك رفض بسكال وشقيقته جاكلين » التى أصبحت وكيلة الدير . وقالت جاكلين : مادام الأساقفة لا يملكون من الشجاعة إلا شجاعة الفتيات » فلابد أن يكون للفتيات شجاعة الأساقفة(٧٧)» وأخيراً وقعت كل الراهبات الباقيات على قيد الحياة » ولكن جاكلين

التى أضنتها مقاومتها الطويلة ماتت فى ٤ أكتوبر وهى لا تجاوز السادسة والثلاثين ، وتلاها بسكال بعد عام واحد .

واستنكر الملك خلال ذلك الديباجة الموفقة وأصر على أن يوقع الراهبات الصيغة دون أى إضافة أو تغيير ، ونقل القليلات اللاتى وقعن إلى البور — رويال فى باريس ، ولكن أغلبية الراهبات ، تتزعمهن الأم آنيس ، صرحن بأنه ليس فى وسعهن التوقيع بضمير خالص على وثيقة تناقض معتقداتهن أشد مناقضة . وفى أغسطس ١٦٦٥ حرم رئيس الأساقفة الراهبات السبعين وأخواتهن العلمانيات الأربع عشرة من تناول الأسرار المقدسة ، وحظر عليهن أى اتصال بالعالم الخارجى . وخلال السنوات الثلاث التالية ، كان أحد الكهنة المتعاطفين مع الراهبات يتسلق أسوار البور — رويال — دى شان ليناول الراهبات المحتضرات قربانهن الأخير . وفى ١٦٦٦ قبض على ساسى ، ولوميتر ، وثلاثة آخرين من المتوحدين بأمر الملك ، أما آرنو الذى تنكر وراء شعر مستعار وسيف ، فقد آوته الدوقة لونجفيل ، التى كانت تخدمه بنفسها أثناء اختبائه (٧٨) . وتبعت هى وغيرها من النبيلات قضية الراهبات ، وأقنعن لويس بأن يلين ؛ وفى ١٦٦٨ أصدر البابا كلمنت التاسع مرسوماً جديداً صيغ فى لبس حكيم يسمح لجميع الأطراف بقبوله ، وأفرج عن السجناء ، وردت الراهبات المنشقات إلى البور — رويال — دى شان ، وعادت الأجراس تدق فى الدير بعد أن صمتت ثلاث سنين . واستقبل الملك آرنو استقبالا وديا ، وكتب هذا كتاباً ضد السكلفنين ، ولكن نيكول كتب كتاباً آخر ضد اليسوعيين .

ودام «سلام الكنيسة» أحد عشر عاماً ، ثم ماتت مدام لونجفيل ، ومات معها السلام . وإذ بدأ الملك يشيخ ، وانقلبت انتصاراته هزائم ، استحال تدينه خليطا من التعصب والخوف ، وساءل نفسه ، أ كان الله يعاقبه على تسامحه مع الهرطقة ؟ واتخذ بغضه للجانسنية طابعاً شخصياً ، ومن الأمثلة على هذا

التحول أن لويس رفض تعيين رجل يدعى فونبيرتوى فى احدى الوظائف لشبهته فى أنه جانسنى ، ولـكنه وافق على التعيين حين أكدوا له أن الرجل ملحد فقط(٧٩). ولم يستطع قط أن يغتفر للراهبات تحديهن لأمره بالتوقيع على الصيغة المشددة . وضمانا للقضاء على مركز سخطه هذا فى وقت مبكر حظر عليه قبول أعضاء جدد . ووجه نداء للبابا كلمنت الحادى عشر لـكى يصدر إدانة صريحة للجانسنية . وبعـــد عامين من الإلحاح أطلق البابا مرسوم Vineam Domini (١٧٠٥) ولم يـكن باقيا على قيد الحياة فى البور — رويال آنئذ سوى خمس وعشرين راهبة ، أصغرهن فى الستين . وترقب الملك موتهن بفارغ الصبر .

وفى عام ١٧٠٩ خلف الأب اليسوعى ميشيل تيلييه البالغ من العمر ستة وستين عاما ، الأب لاشيز ، كاهن اعتراف للملك . فأقر فى ذهن لويس — وكان الملك قد بلغ الحادية والسبعين — أن مصير روحه الأبدى رهن بالإبادة الناجزة الـكاملة للبور — رويال . وقد احتج كثيرون من الأكليروس العلمانيين على هذه العجلة وفيهم أنطوان دنواى ، رئيس أساقفة باريس ، ولـكن الملك تغلب على معارضتهم . وفى ٢٩ أغسطس ١٧٠٩ أحاط الجند بالدير ، وأطلع الراهبات على رسالة ملـكية مختومة تأمر بتفريقهن فورا ، وسمح لهن بخمس عشرة دقيقة يجمعن فيها أمتعتهن . ولم يجـد بـكاؤهن ولا دموعهن . فدفعن داخل مركبات وشتتن فى مختلف الأديار الممتثلة التى تبعد من ستين إلى مائة وخمسين ميلا . وفى ١٧١٠ هدمت مبانى الدير الشهير وسويت بالتراب .

ولـكن الجانسنية عاشت . لقد مات آرنو وبيكول فى منفاهما بفلاندر (١٦٩٤ — ٩٥) ، ولـكن كاهنا فى مصلى باريس يدعى باسكييه كينيل ، دافع عام ١٦٨٧ عن اللاهوت الجانسني فى كتابه « تأملات أخلاقية فى العهد الجديد » . وقد زج به فى السجن (١٧٠٣) . ولـكنه هرب إلى أمستردام.

حيث أسس كنيسة جانسنية . وإذا اكتسب كتابه التأييد الكثير من الأكليروس العلمانى الفرنسى ، فقد أقنع لويس البابا كلمنت الحادى عشر بأن يصدر مرسوم Unigenitus (٨ سبتمبر ١٧١٣) الذى أدان ١٠٤ قضية نسبت إلى كينيل . وقد استاء كثير من الأحبار الفرنسيين من المرسوم لأنه تدخل بابوى فى شئون الكنيسة ، واتحدت الجانسنية مع أحياء للحركة الغالية . فلما مات لويس الرابع عشر ، كان فى فرنسا من الجانسنيين أكثر مما كان فيها فى أى عهد مضى(٨٠) .

ويصعب علينا اليوم أن نفهم لم انقسمت أمة ، وثارت ثائرة ملك ، حول مشاكل عويصة تتصل بالنعمة الآلهية ، والجبرية ، وحرية الإرادة ، ولكننا ننسى أن الدين كان له يومها ما للسياسة الآن من أهميـــة وخطر . وكانت الجانسنية الجهد الأخير الذى بذلته النهضة الأوربية فى فرنسا ، والانتفاضة الأخيرة للعصور الوسطى . ونحن إذا تأملناها فى منظور التاريخ بدت لنا رجعية لا تقدما . بيد أن تأثيرها فى عدة نواح كان تقدميا . فقد كافحت حينا فى سبيل قسط من الحرية — وإن كنا سنجدها فى أيام فولتير أشد تعصبا من البابوية(٨١) . وحدت من شطط الإفتاء الدينى . وكانت غيرتها على الأخلاق ثقلا نافعا أمام سياسة التراخى فى أمور الاعتراف ، تلك السياسة التى ربما شاركت فى تدهور الأخلاق الفرنسية . كذلك كان تأثيرها التعليمى طيبا ، وكانت « المدارس الصغيرة » التى أسستها خير المدارس فى زمانها . وظهر تأثيرها الأدبى لا فى بسكال وحده بل فى كورنيي باعتدال ، وفى راسين بحيوية ، وهو تلميذ البور — رويال ومؤرخه . أما تأثيرها الفلسفى فكان غير مباشر وغير مقصود ، ففكرتها عن الله قاضيا بالعذاب الأبدى على الشطر الأكبر من النوع الإنسانى — بما فيهم جميع الأطفال غير المعمدين ، وجميع المسلمين وجميع اليهود — لعل هذه الفكرة شاركت فى دفع رجال كفولتير وديدرو إلى التمرد على اللاهوت المسيحى بأسره .

٦ - الملك والهيجونوت : ١٦٤٣ - ١٧١٥

لم يكن الملك قد خلص روحه بعد ، فقد بقى فى فرنسا ١٫٥٠٠٫٠٠٠ من البروتستنت . وكان مازاران قد واصل وطور سياسة ريشليو فى حماية حرية الهيجونوت الدينية ما داموا مطيعين سياسياً . أما كولبير فقد أدرك قيمتهم فى تجارة فرنسا وصناعتها . وفى ١٦٥٢ أكد لويس مرسوم نانت (١٥٩٨) الذى أصدره جده هنرى الرابع ، وفى ١٦٦٦ أعرب عن تقديره لولاء الهيجونوت خلال حرب الفروند ، ولكن كان يحزنه ألا تتحق وحدة فرنسا الدينية كما تحققت وحدتها السياسية ، وحوالى ١٦٧٠ كتب فى مذكراته فقرة تنذر بالسوء :

« أما عن ذلك العدد الكبير من رعاياى الذين يدينون بما يسمونه المذهب الأصلاحى ، وهو شر .... انظر إليه بحزن ... فيخيل إلى أن أولئك الذين أرادوا استعمال ضروب عنيفة من العلاج لم يفطنوا إلى طبيعة هذا الشر ، الذى نجم بعضه عن حرارة فى العقول ، والذى يجب أن يترك ليذوى ويموت دون أن يحس به أحد ، بدلا من أثارته من جديد بمثل هذه المقاومات العنيفة . ... وقد آمنت بأن خير سبيل للخفض من عدد الهيجونوت فى مملكتى تدريجياً هو أولا عدم الضغط عليهم اطلاقا بأى قيد صارم جديد ، والأمر بمراعاة ما حصلوا عليه من أسلافى دون منحهم أكثر منه ، وحتى قصر تنفيذه داخل أضيق الحدود التى تجيزها العدالة واللياقة(٨٢) » .

وفى هذه الفقرة رائحة التعصب المخلص . وهذا رأى ملك مطلق السلطة ، أخذ عن بوسويه شعار « ملك واحد ، وقانون واحد ، وعقيدة واحدة » . فلم يعد ذلك التسامح الذى دان به ريشليو الذى كان يعين لمناصب الدولة الرجال الأكفاء أيا كانت عقيدتهم . ويواصل لويس حديثه فيقول إنه لن يعين فى هذه المناصب سوى الكاثوليك الصالحين ، آملا بذلك أنه سيشجع المرتدين على الرجوع إلى حظيرة الكاثوليكية .

أما الكنيسة نفسها فلم تكن قد وافقت قط على التسامح الذى كفله مرسوم نانت ، ففى ١٦٥٥ طالب مجمع اكليريكى بتفسير أشد صرامه للمرسوم. وفى ١٦٦٠ طلب مجمعهم إلى الملك أن يغلق جميع الكليات والمستشفيات الهيجونوتية ، وأن يحرم الهيجونوت من الوظائف العامة ، وفى ١٦٧٠ أوصى المجمع بأن يعتبر الأطفال الذين بلغوا السابعة من عمرهم قادرين قانونا على إنكار الهرطقة الهيجونوتية ، وأن الذين ينكرونها على هـذا النحو ينبغى فصلهم عن آبائهم ، وفى ١٦٧٥ طالب المجمع بأن يعلن بطلان الزيجات المختلطة ، وأن يعتبر نسل هذه الزيجات غير شرعى(٨٣) . وكان رأى بعض رجال الدين الورعين اللطفاء مثل الكردينال دبيرول أن استخدام الدولة لوسائل المنع بالإكراه هو السبيل العملى الوحيد فى التعامل مع البروتستنتية (٨٤) ، وألح الحبر تلو الحبر على الملك بهذه الحجة ، وهى أن استقرار حكومته يرتكز على النظام الاجتماعى ، الذى يرتكز على الفضيله ، التى تنهار إذا لم يدعمها دين الدولة . وشارك العلمانيون الكاثوليك فى هذه الحجة ، وأبلغ القضاة الحكومة عن صدامات مكدرة للأمن بين المذهبين المتنافسين فى المدن — هجمات كاثوليكية على المدارس والجنازات والبيوت البروتستنتية ، وأعمال انتقام بروتستنتية من نفس النوع .

وشيئاً فشيئاً أذعن لويس لهذه الحمله مخالفاً فى ذلك فطرته الأميل إلى الخير ، وإذ كان على الدوام فى حاجة للمال ينفقه على الحرب والأناقة ، فقد وجد رجال الدين يقدمون له منحاً كبيرة شريطة أن يقبل آراءهم . ودفعته عوامل أخرى فى نفس الاتجاه ، فلقد كان يشجع — بل يرشو — تشارلز الثانى لكى يحول انجلترة إلى الكاثوليكية ، فكيف يتأتى فى الوقت ذاته أن يسمح بالبروتستنتية فى فرنسا ؟ ألم يوافق البروتستنت فى صلح أوجزبورج (١٥٥٥) ويعده على المبدأ القائل بأن دين الحاكم يجب أن يفرض على رعاياه؟ وألم ينف الحكام البروتستنت فى ألمانيا وفى الأقاليم المتحدة الأسرائى رفضت ديانة الأمير ؟

وكان لويس ، منذ أن بدأ حكمه الفعلى قد أصدر — أو أصدر وزراؤه بموافقته — سلسلة من المراسيم التى اتجهت إلى إلغاء مرسوم التسامح إلغاء تاماً . ففى ١٦٦١ حرم على البروتستنت العبادة فى معظم مدينة جكس ، قرب الحدود السويسرية ، بحجة أن جكس ضمت إلى فرنسا بعد صدور المرسوم ، وكان يعيش فى هذا الاقليم سبعة عشر ألف بروتستنتى ، وأربعمائة كاثوليكى فقط(٨٥) . وفى ١٦٦٤ جعلت الترقية إلى طبقة معلمى الحرف فى الطوائف الصناعية عسيرة إلا على الكاثوليك(٨٦) ، وفى ١٦٦٥ سمح للصبيان فى الرابعة عشرة والبنات فى الثانية عشرة بقبول اعتناق الكاثوليكية وترك آبائهم ، الذين يلزمون عندها بأن يدفعوا لهم راتباً سنوياً لإعالتهم(٨٧) . وفى ١٦٦٦ حظر على الهيجونوت إنشاء كليات جديدة ، أو الاحتفاظ بمعاهد لتعليم أبناء الأشراف ، وفى ١٦٦٩ تقرر اعتبار هجرة الهيجونوت جريمة يعاقب عليها المهاجر بالاعتقال إذا وقع فى قبضة السلطات ومصادرة بضائعه(٨٨) . وكان كل من ساعد هيجونوتيا على الهجرة عرضة للحكم بتشغيله فى سفن الأسرى مدى الحياة(٨٩) . وفى ١٦٧٧ سمح لويس بوقف « صندوق للمهتدين » تصرف منه مبالغ ، متوسطها ستة جنيهات للفرد ، لكل هيجونوتى يقبل اعتناق الكاثوليكية . وضماناً لثبات المهتدين على الكاثوليكية أصدر مرسوماً (١٦٧٩) يقضى بنفى جميع المرتدين ومصادرة أملاكهم(٩٠) . ثم قطع هذا السيل من التحريمات احتجاج ناخب براندنبورج وشكاوى كولبير مما تحدثه هذه القوانين بالتجارة من كساد ، واشتغال الملك بحملاته الحربية ، ولكن تصالحه فى ١٦٨١ مع الكاثوليكية ، الآمرة بالاقتصار على امرأة واحدة ، رده من جديد إلى الحرب المقدسة على الهيجونوت ؛ فقال لأحد مساعديه إنه يشعر « بالتزام لامتناص منه بهداية جميع رعاياه واستئصال شأفة الهرطقة(٩١) » . وفى ١٦٨٢ أصدر خطاباً — وأمر جميع الرعاة البروتستنت بأن يقرءوه على شعبهم — يهدد فيه الهيجونوت « بويلات لا تقاس بما سبقها هولا وفتكا(٩٢) » . وخلال السنوات الثلاث

التالية أغلقت ٥٧٠ كنيسة من كنائس الهيجونوت البالغ عددها ٨١٥ ، وهدم الكثير منها ، وحين حاول الهيجونوت المبادة على أنقاض كنائسهم المهدمة عوقبوا باعتبارهم عصاة متمردين على الدولة .

وكانت حملات الخيالة dragonnades قد بدأت خلال هذا ، فقد كان من العادات القديمة فى فرنسا أن يسكن الجنود فى الكومونات أو البيوت وعلى حسابها . واقترح لوفوا وزير الحرب على الملك (١١ أبريل ١٦٨١) إعفاء معتنقى الكاثوليكية الجدد عامين من هذا الإيواء للجند ، فأصدر الملك الأمر ، وعلى ذلك أمر لوفوا المديرين العسكريين لإقليمى بواتو وليموزان بأن ينزلوا خيالتهم مساكن الهيجونوت ، لاسيما الأثرياء منهم . وفى بواتو سمح المرشال مارياك لجنوده بأن يفهموا أنه لن يسوءه أن يعاملوا مضيفيهم البواسل بشىء من الغيرة الرسولية ، وراح الجند يسرقون الهيجونوت ويضربونهم ويهتكون أعراضهم ، فلما سمع لويس بهذا الشطط وبخ مارياك ، ولما استمر طرده من وظيفته(٩٣). وفى ١٩ مايو أمر بوقف هداية الهيجونوت بطريق إيواء الخيالة ، وشجب أعمال العنف التى ارتكبت فى بعض الأماكن ضد دعاة الإصلاح البروتستنتى(٩٤) . وأبلغ لوفوا المديرين الإقليميين بأن لهم أن يواصلوا حملات الخيالة ، ولكنه نبههم إلى ضرورة حجب كل معلومات عن هذا الأمر عن الملك . وانتشرت حملات الخيالة فى أرجاء كثيرة من فرنسا ، فأدخلت فى الكاثوليكية آلافاً من المهتدين . وأنكرت مدن وأقاليم — كمونبلييه ، ونيم ، وبيارن — مذهبها الكالفنى على بكرة أبيها ، وتظاهر أغلب الهيجونوت باعتناق الكاثوليكية بعد أن أرهبهم الأمر ، ولكن الألوف هجروا بيوتهم وأملاكهم وهربوا عبر الحدود أو وراء البحر متحدين القوانين . وأبلغ لويس أنه لم يبق بفرنسا غير قلة قليلة من الهيجونوت ، وأن مرسوم نانت أصبح بلا معنى . وفى ١٦٨٤ التمست الجمعية العامة للإكليروس من الملك إلغاء المرسوم كلية ، و« توطيد ملك يسوع المسيح غير منازع من جديد فى فرنسا »(٩٥) .

وفى ١٧ أكتوبر ١٦٨٥ ألغى الملك مرسوم نانت باعتباره مرسوماً للزوم له الان فى فرنسا التى تدين كلها تقريباً بالكثلكة . فحظر منذ ذلك التاريخ على الهيجونوت إقامة شعائرهم أو فتح مدارسهم ، وصدر الأمر بهدم كل أمكنة العبادة الهيجونوتية وتحويلها كنائس كاثوليكية ، وأمر رجال الدين الهيجونوت بالرحيل عن فرنسا فى ظرف أربعة عشر يوما ، ولكن هجرة غيرهم من الهيجونوت حرمت وإلا كان عقاب المهاجرين تشغيلهم فى سفن الأسرى مدى الحياة . ووعد المخبرون بنصف بضائع المهاجرين العلمانيين(٩٦) ، وقضى بأن يعمد جميع الأطفال المولودين فى فرنسا بواسطة القساوسة الكاثوليك وأن يربوا على المذهب الكاثوليكى ، ووعدت فقرة أخيرة بالسماح للقله الباقية من الهيجونوت بأن يسكنوا بعض المدن آمنين . ونفذت المادة فى باريس وضواحيها ، وحمى رئيس الشرطة التجار الهيجونوت هناك وطمأنهم ، ولم يكن هناك حملات خيالة فى باريس أو قربها ، وكان فى وسع المراقص أن تمضى فى فرساى ، وفى وسع الملك أن ينام مطمئناً مرتاح الضمير ، ولكن حملات الخيالة استمرت فى كثير من الأقاليم بتحريض من لوفوا(٩٧) ، وتعرض الهيجونوت المعاندون للنهب والتعذيب . يقول الحجة الفرنسى الأكبر فى إلغاء مرسوم نانت :

«لقد أذن للجنود أن يقترفوا كل جريمة إلا القتل . فكانوا يكرهون الهيجونوت على الرقص حتى يدركهم الإعياء ، ويقذفونهم فى البطاطين إلى أعلى ، ويصبون الماء المغلى فى حلوقهم ... ، ويضربون بطون أقدامهم ، وينتفون لحاهم ... ، ويحرقون أذرع مضيفيهم وسيقانهم بلهيب الشموع .. ، ويكرهونهم على أن يقبضوا على الجمر الملتهب بأيديهم ... ، ويحرقون أرجل الكثيرين بإمساكها طويلا أمام نار كبيرة ... ويلزمون النساء بأن يقفن عرايا فى الطريق يحتملن هزء المارة واهاناتهم . وقد أوثقوا مرة أما مرضعا إلى عمود سرير وأمسكوا برضيعها بعيدا عنها وهو يصرخ فى طلب ثديها ، فلما فتحت فاها لتتوسل إليهم بصقوا فيه(٩٨) » .

ويرى ميشليه أن إرهاب ١٦٨٥ للقدس هذا كان أشنع كثيرا من إرهاب عصر الثورة فى ١٧٩٣(٩٩). وقد أكره نحو ٤٠٠ر٠٠٠ من « المهتدين » على حضور القداس وتناول القربان ، وحكم على الذين بصقوا قطع القربان المكرسة بعد مغادرتهم الكنيسة بالحرق احياء(١٠٠). وزج بالذكور من الهيجونوت للمعاندين فى سجون تحت الأرض أو زنزانات غير مدفأة . أما نساء الهيجونوت للممنات فى العناد فقد حبسن فى الأديار حيث لقين على غير توقع للعاملة الرحيمة من الراهبات(١٠١) .

على أن إقليمين قاوما الإرهاب ببسالة ملحوظة . وسنسمع أنباء الفودوا فى الدوفينيه الفرنسية وبيدمونت السافووية فى مكان لاحق من هذا الكتاب. وفى أودية سلسلة جبال السيفين فى اللانجدوك احتفظ الألوف من الهيجونوت « المهتدين » بإيمانهم سرا ، مترقبين الوقت والفرصة للتحرر . وقد أكد لهم « أنبياؤهم » الذين أدعوا الوحى الإلهى بأن الوقت قد اقترب ، فلما بدا أن حرب الوراثة الأسبانية تستوعب الأسلحة الفرنسية ، شكل الفلاحون جماعات متمردة من « الكاميزار Camisards » الذين ارتدوا القمصان البيض ليميز بعضهم بعضا فى الليل . وفى إحدى المعارك قتلوا الأب شيلا الذى كان يضطهدهم بغيرة شديدة ، ففأجأهم فوج من الجند وذبحهم دون تمييز ؛ وهدم بيوتهم وخرب محاصيلهم (١٧٠٢) . وردت بقية منهم على هذا الهجوم بضراوة ، إلى أن اقنعتهم بالصلح وسائل المرشال فيلار الدوفيقية .

ومن بين الهيجونوت الذين سكنوا فرنسا فى ١٦٦٠ والبالغ عددهم ١ر٥٠٠ر٠٠٠ ، فرنحو ٤٠٠ر٠٠٠ فى العقد الذى تخلله إلغاء مرسوم نانت عبر الحدود المخفورة مغامرين بحياتهم . وعاشت مئات قصص البطولة قرنا بأكمله بعد تلك السنين اليائسة . ورحبت الدول البروتستنتية بالمهاجرين فأفسحت جنيف مكانا لأربعة آلاف من الهيجونوت برغم أن سكانها لم يزيدوا على ستة عشر ألفا . وقدم تشارلز الثانى وجيمس الثانى للعونة المادية

للهيجونوت على الرغم من كثلكتهما ، وسهلا استيعابهم فى الحياة السياسية والاقتصادية الإنجليزية . واستقبلهم ناخب براندنبورج استقبالا وديا حتى أن أكثر من خمس سكان برلين فى ١٦٩٧ كانوا فرنسيين وفتحت لهم هولندة أبوابها وبنت مئات البيوت لأيواء الوافدين واقرضتهم المال ليقيموا مصالحهم وكفلت لهم كل حقوق للمواطنة ، وانضم الكاثوليك الهولنديون إلى البروتستنت واليهود فى جمع المال لإعانة الهيجونوت . ولم يكتف اللاجئون الشاكرون بإثراء الصناعة والتجارة فى الأقاليم المتحدة ، بل إنهم تطوعوا فى الجيوش الهولندية والإنجليزية التى خاضت القتال ضد فرنسا ، ورافق بعضهم وليم الثالث أو تبعه إلى انجلترة ليساعدوه على جيمس الثانى . أما المرشال شومبيرج الكلفنى الفرنسى الذى أحرز انتصارات للويس الرابع عشر من قبل فقاد جيشا إنجليزيا ضد الفرنسيين ومات وهو يهزمهم فى معركة البوين (١٦٩٠) . وفى كل بلد من هذه البلاد المضيافة جلب الهيجونوت مهاراتهم فى الحرف والتجارة والمال ، وأفادت أوربا البروتستنتية كلها من انتصار الكاثوليكية فى فرنسا . وشغل صناع الحرير الفرنسيون حيا بأكمله من أحياء لندن ، وأصبح المنفيون الهيجونوت فى إنجلترة شراح الفكر الإنجليزى ومترجميه لفرنسا ، فمهدوا بذلك لغزو بيكون ونيوتن ولوك للعقل الفرنسى .

واستنكرت قلة من الكاثوليك الفرنسيين سرا تلك المذابح التى رافقت إلغاء المرسوم ، وأمدوا كثيرا من الضحايا بالمعونة وقدموا لهم الملجأ خفية . ولكن الكثرة العظمى هللت للقضاء على الهيجونوت باعتباره قمة إنجازات الملك ، وقالوا أن فرنسا أصبحت الآن ، فى النهاية ، بلدا كاثوليكيا موحدا . وأثنى كبار الكتاب أمثال بوسويه وفنيلون ولافونتين ولا بروبير ، وحتى الأب الجانسنى آرنو ، على شجاعة الملك فى تنفيذ ما خالوه إرادة الأمة . وكتبت مدام دسفينييه تقول « ليس هناك أبدع ولا أروع . ولم يصنع

ملك ولن يصنع شيئا أخلد من هذا(١٠٢) » . أما لويس نفسه فأسعده أن يكمل — كما خيل إليه — عملا ثقيلا ولكنه مقدس . يقول سان سيمون : —

« لقد آمن أنه جدد عهد تبشير الرسل الأولين . وكتب الأساقفة المدائح التي تشيد به ، وجعل اليسوعيون المنابر تتغنى بالثناء عليه ... ولم يكن يسمع غير الاطراء بينما كان الكاثوليك والأساقفة الاتقياء الصادقون يئنون بالروح إذ يرون الكاثوليك السنيين ينحرفون إلى الخطأ ، والمهرطقين يسلكون مسلك الطغاة الخوارج ، والوثنيين يحاربون الحق والمؤمنين المجاهرين بإيمانهم والشهداء . ولم يستطيعوا أن يطيقوا هذا السيل من الحنث وتدنيس المقدسات(١٠٣) » .

وكان سان — سيمون وفوبان من الفرنسيين القلائل الذين أدركوا منذ البداية تلك الخسارة الاقتصادية التي ألحقها بفرنسا نزوح هذا المدد الكبير من المواطنين الكادحين . وفقدت كان صناعة نسيجها ، وتور ثلاثة أرباع أنوال الحرير فيها . ومن بين الستين مصنعا للورق في إقليم أنجوموا لم يبق سوى ستة عشر ، ومن بين ١٠٩ متجرا في مدينة ميزيير لم يبق سوى ثمانية ، ومن بين أربعمائة مصبغة في تور لم يبق سوى أربع وخمسين(١٠٤) . واضمحلت ثغور كمرسيليا لفقدها الأسواق في بلاد أصبحت الآن بفضل جهود الهيجونوت وإرشادهم تنتج ما كانت من قبل تستورده من فرنسا . وقضى جزئياً على حركة التعمير الكبرى التي أدخلها كولبير على الاقتصاد الفرنسي ، ونزحت الصناعات التي جاهد في سبيل تنميتها في فرنسا لتغذي منافسيها . ولما هبطت إيرادات الدولة من الصناعة هبوطاً حاداً وقعت الحكومة من جديد في أيدي المرابين الذين انقذها كولبير من براثنهم . وفقدت البحرية الفرنسية تسعة آلاف بحار ، والجيش ستمائة ضابط واثنى عشر ألف جندي ، ولعل نضوب البحرية والجيش على هذا النحو كان من عوامل الهزائم التي أوشكت أن تحطم فرنسا في حرب الوراثة الأسبانية .

كذلك شددت همجية الاضطهاد الرهيبة واستغاثات المهاجرين من عزيمة أوربا البروتستنتية على الاتحاد ضد فرنسا .

على أن إلغاء المرسوم ربمـــا كان معيناً غير مباشر للفنون والعادات ولطائف الحياة فى فرنسا . ذلك أن الروح الكلفنية المتشكـكة فى الزينة والصور المنحوتة والمرح الطائش ثبطت الفن والأناقة والظرف . ولو أن فرنسا أصبحت بيوريتانية لكانت شذوذاً وخطأ . ولكن إلغاء المرسوم كان كارثة على الدين الفرنسى . لقد لاحظ بيكون من قبل أن مشهد الحروب الدينية كان خليقاً بأن يجعل لوكريتوس — لو رآه — « سبعة أضعاف ما كان أبيقورية » وإلحاداً(١٠٥) . « فماذا تراه كان قائلا الآن ؟ لم تبق نقطة توقف للعقل الغالى بين الكاثوليكية والإلحاد . وبينما أفادت البروتستنتية فى سويسرة وألمانيا وهولندة وانجلترة فى الإعراب عن التمرد على الكنيسة ، لم يبق فى فرنسا أداة استنكار كهذه . فوجدت حركة الانتقاض على الرومانية أنه أيسرلها أن تكون شكاكة خالصة من أن تكون بروتستنتية سافرة . وانتقلت النهضة الفرنسية ، غير المعوقة من البروتستنتية ، رأساً إلى حركة التنوير بعد موت الملك .

٧ - بوسويه : ١٦٢٧ - ٨٨

بيد أن الكنيسة الفرنسية كانت ظافرة ولو مؤقتاً ، وتربعت على عرش بهائها وسلطانها . وكانت رغم ماشاب روحها الجماعية من تعصب ، وما عاب سلطتها من قسوة ، تضم أرقى نخبة من الرجال فى أوربا تعليما ، وكان قديسوها ينافسون طغاتها . وكان من أساقفتها نفر ذوو نزعة إنسانية ، عاكفون فى إخلاص على الخير العام كما رأوه . ودخل اثنان منهم الأدب الفرنسى دخولا شارف فى سنائه دخول بسكال ، وكان فى زمانهما أكثر بروزاً . وقلما تجد بين رجال الكنيسة الفرنسيين من ضارع فى سمعته بوسيويه ، أو فنيلون فى شعبيته .

أما جاك بنين بوسويه (واسمه الأوسط Bénigne — أى اللطيف — كان أنسب لفنيلون) فقد ولد فى أسرة ثرية لمحام بارز وعضو فى برلمان ديجون (١٦٢٧) . نذره أبواه للقسوسية ، وجز شعر رأسه فى الثامنة ، وحين بلغ الثالثة عشرة عين كاهناً فى كاتدرائية متز . وفى الخامسة عشرة أرسل إلى كلية نافار بباريس . وفى السادسة عشرة كان قد بلغ من الفصاحة منزلة حملت نساء الأوتيل درامبوييه المثقفات على إقناعه بأن يلقى عليهن عظة فى منتصف سهرة الصالون رغم ماطبع عليه من كبرياء مقترنة بالخجل . وبعد أن تخرج بمرتبة الشرف عاد إلى متز ورسم قسيساً وتقدم بعد قليل لنيل درجة الدكتوراه فى اللاهوت . وقد راعه أن يجد أن عشرة آلاف من بين الثلاثين ألف نفس فى متز كانوا من البروتستنت الهالكين . ودخل فى جدل مهذب مع بول فيرى الزعيم الهيجونوتى ، وقد سلم له ببعض المفاسد فى الممارسات الكاثوليكية ، ولكنه زعم أن الانشقاق رغم ذلك شر أعظم . وظل على علاقات ودية مع فيرى اثنتى عشرة سنة ، تعاما كما سنراه فى فترة لاحقة يجاهد جهاداً حبياً مع ليبنتز فى سبيل إعادة توحيد العالم المسيحى . ولما سمعته آن النمساوية يعظ فى متز خيل إليها إنه أرقى من تلك البيئة التى لاتليق بمواهبه ، وأقنعت الملك بأن يدعوه إلى باريس ، فانتقل إليها فى ١٦٥٩ .

ووعظ أول الأمر جماهير بسيطة فى دير سان لازار برعاية فانسان دبول . وفى ١٦٦٠ وعظ جمهوراً عصريا فى كنيسة « لى مينيم » قرب البلاس رويال . وسمعه الملك ، فتبين فى الخطيب الشاب مزيجا متوازنا من البلاغه ، واستقامه العقيدة ، وقوة الخلق . فدعاه لإلقاء عظات الصوم الكبير فى ١٦٦٢ باللوفر ، واختلف إلى هذه الخطب فى تقوى واضحه ، اللهم إلا فى ذلك الأحد الذى انطلق فيه على جواده مسرعا ليسترد لويز دلا فاليير من الدير . وحفز حضور الملك هذه العظات بوسويه على أن ينقى أسلوبه من الجلافات الريفية ، والاستشهادات السكولاستية ، والحجج الجدليه .

ذلك أن أناقة البلاط انتقلت إلى كبار الأكليروس ، فأثمرت عهداً من البلاغة المنبرية ينافس البلاغة القانونية التى اشتهر بها ديموستين وشيشرون . وفى أثناء السنوات الثمانيه التالية وفق بوسويه فى أن يكون الخطيب المفضل فى كنائس القصر ، ثم أصبح المرشد الروحى لعدد من كبريات النبيلات مثل هنريتا «مدام» دورليان، ومدام دلونجفيل، ومدموازيل دمونبانسيه (١٠٦) وكان فى بعض عظاته يوجه الخطاب إلى الملك مباشرة ، مغالياً فى تملقه عادة، ولكنه دعاه مرة بحرارة إلى أن يهجر زناه وفجوره ويعود إلى زوجته . ففقد برهة رضاء الملك، ولكنه استرده حين هدى تورين إلى الكاثوليكيه. وفى ١٦٦٧ اختاره لويس ليؤبن آن النمساوية فى مأتمها ، وبعد عامين ألقى عظه فوق جثمان هنرييتا ماريا ملكة انجلترة الأرملة ، وفى ١٦٧٠ اضطلع بواجب أليم هو تأبين هنرييتا الصغرى ، تابعته المحبوبة التى فاضت روحها بين ذراعيه فى فتنة صباها التى لم يكتب لها بقاء طويل .

والعظتان اللتان أبن بهما تشارلز الثانى ملك انجلترة وأخته هما أشهر العظات قاطبة فى الأدب الفرنسى — لأن خطاب البابا أوربان الثانى الذى مازال يفوقهما شهرة ، والذى استنفر فيه أوروبا إلى الحرب الصليبية الأولى (١٠٩٥) — هذا الخطاب كان باللاتينية وإن ألقى على أرض فرنسية. واستهل بوسويه أول هذين التأبينين بموضوعه الجرىء المفضل ، وهو أن على الملوك أن يتعلموا من دروس التاريخ ، وأن الانتقام الإلهى سوف يحل بهم إن لم يستعملوا سلطتهم لخير الشعب ، ولكنه بدلا من أن يرى فى تشارلز الأول ملك انجلتره مثالا على هذا العقاب ، لم يجد فيه عيباً سوى فرط رأفته ، ولم يجد عيباً على الاطلاق فى زوجته الوفية ، فصور الملكة المتوفاة قديسة جاهدت لتهدى زوجها وانجلترة إلى الكاثوليكية . ثم استطرد بإسهاب فى موضوع آخر محبب إلى نفسه ، وهو تكاثر الملل والنحل البروتستنتية التى لا حصر لها ، وفوضى الأخلاق المنبعثة من اضطراب العقيدة ، وقال : إن « التمرد الكبير » كان عقاباً إلهياً على مروق انجلتره

من كنيسة روما ، ولكن ما كان أروع سلوك الملكة بعد إعدام زوجها على هذا النحو الإجرامى الرهيب ! لقد تقبلت أحزانها كفارة وبركة ، وحمدت الله عليها وعاشت أحد عشر عاماً فى صلاة متواضعة صابرة، وأخيراً أثيبت على تعبها ، فرد ابنها إلى عرشه ، وكان فى وسع الملكة الأم أن تسكن القصور من جديد ، ولكنها آثرت عليها ديراً فى فرنسا ، ولم تستعمل ثروتها الجديدة إلا فى الاستكثار من أعمال البر .

وكان أشد من هذه تأثيراً وأوثق قرباً للتاريخ وللذكريات الفرنسية تلك العظة التى ألقاها بوسويه بعد عشرة شهور فوق جثمان هنريتا آن . وكان قد رسم قبيل ذلك أسقفاً لكوندوم فى جنوب غربى فرنسا ، ومن أجل هذا الخطاب جاء إلى كنيسة دير سان — دنى فى كل بهائه الأسقفى ، يتقدمه المنادون ، وعلى رأسه تاج الأسقفية، وفى أصبعه تتألق الزمردة الكبيرة التى أهدته إياها يا الأميرة المتوفاة . وفى مثل هذه العظات كان يحد من انفعال الخطيب تفكيره فى الموت فى صورة عامة ، أما الآن فقد كان الموت موت واحدة كانت حتى الأمس القريب مسرة الملك وبهاء البلاط ، وأجهش الحبر الجليل بالبكاء وهو يذكر كيف فوجىء القوم مفاجأة أليمة بهذه اللطمة التى جعلت فرنسا كلها تنوح وتتعجب من طرق الله . ثم وصف هنريتا لا بموضوعية فاترة ، بل بتحيز المحبة — « لقد كانت على الدوام لطيفة مسالمة سمحة خيرة (١٠٧) » — واكتفى بالإلماع فى إيجاز حكيم إلى أن سماتها لم تتكافأ مع فضائلها . ثم تجاسر حتى هذا الأسقف الأريب ركن السنية الركين وحارسها الأمين — تجاسر لحظة على أن يسأل الله لم يزدهر كل هذا الشر والظلم على الأرض (١٠٨) . ثم عزى نفسه وجمهوره بذكرى تقوى هنريتا فى احتضارها ، وبالأسرار المقدسة التى طهرتها من كل علاقاتها الأرضية ، فلا ريب إذن أن روحا رقيقة مطهرة كروحها تستحق الخلاص ، بل إنها لتزين الفردوس نفسه !

وبسبب خطأ نادر فى الحكم على الأخلاق عين لويس بوسويه (١٦٧٠)

معلما للدوفان ، متأثراً فى ذلك ببلاغته تلك — وعهد إليه بتدريب ذلك الصبي المتخلف ، المتبلد الحس ، على المعرفة والخلق اللازمين لحكم فرنسا . وانصرف بوسويه مخلصا لهذه المهمة . فاستقال من أسقفيته ليكون قريباً من تلميذه القاصر ومن البلاط ، وكتب للويس الصغير كتيبات جادة فى تاريخ العالم والمنطق والإيمان المسيحى والحكم وواجبات الملك ، مما كان خليقاً بأن يجعل من الصبي هولة من الكمال والقوة.

وفى إحدى هذه المقالات المسماة « السياسة مستقاة من كلام الأسفار المقدسة » (١٦٧٩ — ١٧٠٩) دافع بوسويه عن الملكية المطلقة وحق الملوك الإلهى بغيرة فاقت غيرة الكردينال بيلارمين فى تأييده لسيادة البابوات. ألم يكتب فى العهد القديم أن « الله أعطى لكل شعب حاكمه »(١٠٩) وفى العهد الجديد بكل سلطان القديس بولس « إن السلاطين مرتبة من الله (١١٠) ، أجل ، ولقد أضاف الرسول قوله « إذن فكل من يقاوم السلطة يقاوم ترتيب الله ، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة » . واضح إذن أن كل من يقبل الكتاب المقدس كلمة الله يجب أن يكرم الملك باعتباره خليفة لله ، أو كما قال أشعياء النبي عن كورش إنه « مسيح الرب (١١١) » . إذن فشخص الملك مقدس ، وسلطة الملك مقدسه ومطلقة ، والملك لا يسأل إلا أمام الله . ولكن هذه المسئولية تضع على عاتقه التزامات قاسية . فعليه فى كل لفظ وعمل أن يطيع قوانين الله ، ومن حسن حظ لويس أن إله التوراة كان عطوفاً على تعدد الزوجات .

كذلك كتب بوسويه للدوفان (١٦٧٩) كتابه الشهير « حديث عن تاريخ العالم » . ذلك أنه حين روعه إلماع ديكارت إلى أن جميع الأحداث فى العالم للموضوعى — إذا افترضنا لها دفعة مبدئية من الله — يمكن أن تفسر آليا بأنها منبعثة من قوانين الطبيعة ودستورها ، رد عليه بأن كل حدث كبير فى التاريخ إنما هو — على النقيض من ذلك — جزء

من خطة إلهية ، وعمل من أعمال العناية الإلهية أفضى إلى ذبيحة للمسيح ونمو للمسيحية لتصبح « مدينة متسعة لله » . وتناول الكتاب المقدس ثانية باعتباره موحى من الله ، فركز التاريخ كله على سيرة يهود العهد القديم والأمم التى أنارتها المسيحية . « لقد استخدم الله الأشوريين والبابليين ليعاقب شعبه المختار ، والفرس ليردهم إلى وطنهم ، والاسكندر ليحميهم ، وأنطيوخس ليمتحنهم ، والرومان ليصونوا حرية اليهود ضد ملوك سوريا » . فإذا بدا لنا فى هذا الرأى حماقة ، فان علينا أن نذكر أنه كان أيضا رأى كتاب التوراة الذين وحد بوسويه بينهم وبين الله فى ثقة . ومن ثم فقد بدأ بخلاصة لتاريخ العهد القديم ، وقام بهذه المهمة بما عرف عنه من ولع بالنظام والإيجاز وقوة البلاغة . واعتمد ترتيبه الزمنى على تقويم أوشير رئيس الأساقفة ، فأرخ الخليقة بسنة ٤٠٠٤ ومر بوسويه مرور الكرام بتلك الأمم التى لم يشر إليها الكتاب المقدس ، ولكنه وصفها وصفا مجملا ينم على بصيرة وقوة ملحوظتين ، وأبدى فهما عطوفا للفضائل والإنجازات الوثنية . وقد رأى بعض التقدم خلال مشكال الإمبراطوريات الصاعدة والساقطة ، واتخذت فكرة التقدم جسدا ولحما فى كتاباته ، وكذلك فى كتابات شارل بيرو وغيره من المدافعين المعاصرين عن المحدثين ضد القدامى ، ومهدت الطريق من بعيد لطورجو وكوندرسيه . وخلق الكتاب رغم كل عيوبه الفلسفة الحديثة للتاريخ ، وحسب رجل واحد أن يحقق انجازا كهذا .

على أن الأمير تلميذ بوسويه لم يقدر شرف تأليف الكتب العظيمة لتعليمه . فقد كان فى روح بوسويه من الجد والصرامة مالا يجمله المعلم اللطيف للمرضى . وكان أنسب لطبيعته أن يرشد فى رفق لويز دلافاليير لتهرب من حياة الزنا إلى الدير ، وقد أتى العظة حين قطعت على نفسها عهد الرهبنة . وفى ذلك العام (١٦٧٥) جاهر ثانية بلوم للملك الزير ، واستمع إليه لويس فى صبر نافد ، ولكنه أعاده لمنصب الأسقفية وعينه أسقفاً على مو (١٦٨١)

على قرب من فرساى ينيح له أن يتذوق نخامة البلاط وبهاءه . وكان طوال ذلك الجيل المتكبر ، الشارح والقائد العمدة للاكليروس الفرنسى . وقد وضع لأجلهم « للمواد الأربع » التى أكدت من جديد « الحريات الغالية » للكنيسة الفرنسية إزاء السيطرة البابوية . ولقد أفقده عمله هذا قبعة الكردينالية ، ولكنه أصبح بابا فرنسا .

ولم يكن بالبابا السيئ . فهو مع إصراره على كرامة الأسقفية ورعاية مراسمها ظل رحيما لطيفا ، وبسط عباءته فوق ألوان كثيرة من المعتقد الكاثوليكى . وقد وافق بسكال على إدانة الشطط الذى تورط فيه الإفتاء الدينى دون أن يغتفر له السخط والاحتقار اللذين إلهبا رسائله الإقليمية . ففى ١٧٠٠ أقنع جمعية الاكليروس العامة باستنكار ١٢٧ قضية أخذت من فتاوى للفتيين اليسوعيين ، وقد ظل على علاقات ودية مع آرنو وغيره من الجانسنيين . وذاع عنه أنه كان متسامحا فى كرسى الاعتراف ، وأنه استنكر مظاهر التقشف فى العلمانيين ، ولكنه أطرى بحرارة نسك رانسيه ، وكان يختلف بين الحين والحين إلى خلوة فى لاترابّ ، ويتمنى أحيانا أن يظفر بسلام صومعة الراهب . ولكن بريق البلاط غلب طموحه للقداسة ، ولوث لاهوته بأطماع الارتقاء فى مراتب الكنيسة والدولة . وقد توسل مرة إلى رئيسة الدير فى مو قائلا : « صلى لأجلى لكيلا أحب العالم(١١٢) » . وقد أصبح أشد صرامة فى أخريات أيامه . وعلينا أن نغتفر له تنديده بالمسرحيه وبموليير فى كتابه « حقائق هامة عن الملهاة » (١٦٩٤) لأن موليير لم يعرض الدين إلا فى صورته المتزمتة المناقفة ، ولم ينصف رجالا مثل فانسان ديول .

كان بوسويه أشد تعصبا نظرياً منه عمليا . فقد رأى أن من السخف أن يظن أى ذهن فردى مهما عظم ذكاؤه أنه يستطيع أن يكتسب فى عمر واحد من المعرفة والحكمة ما يؤهله للجلوس فى كرسى القضاء ليحكم على

تقاليد ومعتقدات الأسرة والمجتمع والدولة والكنيسة . فالحس المشترك « Sens commun » أجدر بالثقة من التفكير الفردى ، ولا يعنى الحس أو الإدراك المشترك فكر الأشخاص العاديين ، بل الذكاء الجماعى لأجيال علمتها قرون من الخبرة ، الذكاء الذى يتمثل فى أعراف النوع الإنسانى ومعتقداته. فمنذا الذى يستطيع أن يزعم أنه يعرف خيرا من هؤلاء جميعا حاجات النفس البشرية والإجابات عن الأسئلة التى لا تستطيع المعرفة وحدها أن تجيب عنها؟ ويترتب على هذا أن الذهن البشرى فى حاجة إلى سلطة تعطيه السلام، والتفكير الحر لا يستطيع إلا أن يدمر ذلك السلام ، والمجتمع البشرى فى حاجة إلى سلطة تعطيه الأخلاق ، ولكن التفكير الحر بتشككه فى المصدر الإلهى للقانون الخلقى إنما يهدم النظام الأخلاقى برمته . فالهرطقة إذن خيانة للمجتمع والدولة كما أنها خيانة للكنيسة ، و« الذين يؤمنون بأن الملك ينبغى ألا يستعمل القوة فى أمور الدين ... يرتكبون خطأ مجانبا للتقوى(١١٣) » ولقد آثر الأسقف الإقناع على الإكراه فى هداية المهرطقين ، ولكنه دافع عن الإكراه باعتباره الملاذ الأخير ، ورحب بإلغاء مرسوم نانت لأنه « المرسوم الورع الذى سيكيل للهرطقة الضربة القاضية » . ونفذ القانون فى إقليمه بكثير من التسامح ، حتى لقد كتب الناظر الملكى يقول « ليس فى الإمكان عمل شىء فى أسقفية مو ، لأن ضعف الأسقف يقف عقبة فى سبيل هداية الهيجونوت(١١٤) ». وقد ثبت معظم الهيجونوت فى تلك المنطقة على مذهبهم .

وكان إلى النهاية يعلل نفسه بأن الحجة قادرة أن تكسب حتى هولندة وألمانيا وإنجلترة وتردها للإيمان القديم . وسنراه يفاوض لا يبتز سنوات عديدة على خطة الفيلسوف التى اقترحها لإعادة توحيد القطاعات المنشقة من المسيحية . وفى ١٦٨٨ كتب رائعته « تاريخ ملل الكنائس البروتستنتية » — وهو الذى قال « بكل » إنه « ربما كان أخطر كتاب وجه ضد البروتستنتية(١١٥) . وقد تميزت مجلداته الأربعة بالدراسة الشاقة ، وكانت كل صفحة فيها تدعم بالمراجع ، وهو لون من الأمانة كان بدأ يتجسد .

وبذل الأسقف فى كتابه محاولة ليكون منصفا . فسلم بمفاسد الكنيسة التى تمرد عليها لوثر ، ورأى الكثير مما يستحق الإعجاب فى خلق لوثر ، ولكنه لم يستطيع أن يسيغ الفظاظة المبتهجة التى اختلطت فى لوثر بالبسالة الوطنية والتقوى الرجولية . ثم صور ملانكتون بصورة تكاد تكون صورة الحب . غير أنه كان يأمل فى تفكيك ولاء أتباع هؤلاء المصلحين لهم باظهار مواطن ضعفهم الشخصى وخلافاتهم اللاهوتية وقد هزأ بالفكرة التى زعمت أن لكل إنسان الحريه فى تفسير الكتاب المقدس لنفسه وتأسيس دين جديد على قراءة جديدة له ، فكل من خبر الطبيعة البشرية يستطيع أن يتنبأ بأنه لو ترك لهؤلاء الحبل على الغارب لأسفر هذا عن تفتيت المسيحية إلى متاهة من الملل والنحل ، وتفتيت الأخلاق إلى فردية لا يستطيع أن يكبح جماح غرائز الغاب فيها سوى الاستكثار من الشرطة استكثاراً لانهاية له . فمن لوثر إلى كالفن إلى سوكينوس — من رفض البابوية ، إلى رفض سر القربان إلى رفض المسيح — ثم من التوحيد (رفض التثليث) إلى الإلحاد ، تلك هى الدرجات الهابطة شيئاً فشيئاً إلى انحلال الإيمان . ومن الثورة الدينية إلى الثورة الاجتماعية ، ومن رسائل لوثر إلى حرب الفلاحين ، ومن كالفن إلى كرمويل إلى « المسوين » إلى قتل الملك ؛ تلك درجات منزلقة فى تحلل النظام الاجتماعى والسلام . ولا يستطيع سوى دين ذى سلطان أن يعطى الوازع للأخلاق ، ويمنح الاستقرار للدولة ، ويسلح الروح البشرية بالقوة وهى تواجه الحيرة وفقد الأحباء وللموت .

لقد كان الكتاب حجة قوية ، شديدة التأثير بما حوت من ثقافة وبلاغة ، محتوية على صفحات لاضريب لها فى نثر ذلك العصر الفرنسى إلا فى جداليات بسكال العنيفة و « خواطره » ، ولولا أن التجاءه للعقل قد أحبطه التجاؤه للقوة فى فظاعات إلغاء المرسوم لحقق نجاحاً أعظم . فقد ظهرت فى الدول البروتستنتية عشرات الردود المفندة لحجج الكتاب تشجب بقوة ذلك

التظاهر بالاحتكام إلى العقل فى رجل حبذ النهب والسلب والنفى والمصادرة والاسترقاق فى سفن تشغيل الأسرى حججا للدفاع عن المسيحيه الكاثوليكيه. وتساءل أصحاب الردود ألم يكن هناك ملل مختلفه فى الكاثوليكيه أيضاً ؟ وأى قرن خلا من الانقسامات فى الكنيسه — من الكاثوليك الرومان ، والكاثوليك اليونان ، والكاثوليك الأرمن ، والكاثوليك الشرقيين ؟ وألم يكن جانسنيو البور — رويال فى تلك اللحظه يقتتلون مع إخوانهم من الكاثوليك أعضاء جماعة يسوع ؟ وألم يكن الأكليروس الغالى بزعامة بوسويه نفسه فى نزاع مر مع دعاة سلطان البابوية المطلق كاد يبلغ حد الانشقاق على روما ؟ وألم يكن بوسويه يقاتل فنيلون ؟

٨ — فنيلون . ١٦٥١ — ١٧١٥

كان فرانسوا دسالنياك دلا موت — فنيلون ، النبيل المولد ، الثلاثى الاسم ، كبوسويه سنياً طموحاً ، أسقفا ورجل بلاط ، ومعلما لأمير من البيت المالك ، وكاتباً من فحول النثر . ولكنه فى غير ذلك كان بينه وبين بوسويه مابين السماء والأرض من تباين . كتب سان — سيمون معرباً عن إعجابه بالرجل يقول :

« رجل فارع القوام نحيل الجسد قوى البنية شاحب الوجه كبير الأنف له عينان تقدحان الشرر والذكاء . فى سحنته ما يوحى بأنها تتألف من متناقضات ، ومع ذلك فإن هذه المتناقضات على نحو ما لا تؤذى الناظر . فوجهه أنيق وقور ، رزين مرح ، يطالعك منه اللاهوتى والأسقف والنبيل على السواء ، وفى هيئته كما فى شخصه يرى الناظر قبل كل شىء رقة وتواضعاً وقدراً فائقاً من رفعة الذهن . لقد كان عسيراً على الناظر إليه أن يحول عينيه عن وجهه(١١٦) » .

وعند ميشليه أن « فيه شيئاً من الشيخوخة منذ ولادته(١١٧) » —

لأنه كان ثمرة الازدهار الأخير لإقطاعى مكتهل فى بيريجوز تزوج آنسة ببيلة رغم فقرها ؛ ضارباً صفحا عن تذمر أبنائه الكبار ، وأقصى الابن الجديد عن المال بنذره للكنيسة . وربته أمه ، نشب على أناقة فى الحديث ورهافة فى الحس أشبه بأناقة حديث النساء ورهافة حسهن . وقد أحسن تثقيفه فى الآداب القديمة على يد معلم خاص ويسوعي بباريس ، فأصبح أديباً لا قسيساً فحسب . وكان فى استطاعته أن يبارى أى مهرطق فى الاستشهاد بأقوال الوثنيين ، ويكتب الفرنسية بأسلوب حساس مرهف مهذب هو نقيض أسلوب بوسويه الخطابى ، الفحل ، الجزل

رسم كاهنا فى الرابعة والعشرين (١٦٧٥) ، وسرعان ما رقى رئيساً لدير «الكاثوليك الجدد» . وهناك اضطلع بمهمة شاقة هى رد الشابات اللاتى أبعدن عن الروتستنتية حديثاً إلى حظيرة الإيمان الكاثوليكى . وقد استمعن إليه أول الأمر على مضض ، ثم فى استسلام ، ثم فى محبة ، لأنه كان يسيراً على المرء أن يقع فى غرام فنيلون ، ثم إنه الرجل الوحيد المتاح لهن . وفى ١٦٨٦ أرسل إلى إقليم لاروشل ليعاون على هداية الهيجونوت . وقد حبذ مرسوم الإلغاء ، ولكنه استنكر العنف ، وأنذر وزراء الملك بأن هداية الناس بالإكراه لن تكون إلا سطحية ومؤقتة . ولما عاد إلى الدير بباريس نشر (١٦٨٧) « رسالة فى تعليم البنات » تكاد تستشف فيها روح روسو فى دفاعها عن الوسائل اللينة فى التربية . ولما عين الملك الدوق دبوفيلييه مربياً لحفيده دوق برجنديه ، البالغ من العمر ثمانية أعوام ، طلب إلى فنيلون أن يتولى تعليم الصبي (١٦٨٩) .

أما الدوق الصغير فكان متكبراً عنيداً مشبوب العاطفة ، فى طبعه أحياناً شراسة وقسوة ، ولكنه أوتى ذهناً متألقا وذكاء متوقدا . وأحس فنيلون أن الدين وحده هو الكفيل بترويضه ، فأشربه مخافة الله ومحبته معاً ، واكتسب فى الوقت نفسه احترام تلميذه بأخذه بنظام حازم خفف

من شدته فهم عطوف لدور المراهقة . وقد راودته الأحلام باصلاح فرنسا عن طريق تربية ملكها للمستقبل . فعلم الغلام سخافة الحرب ، وضرورة النهوض بالزراعة بدلا من تثبيط همم الفلاحين بالضرائب تجبى لبناء المدن الباذخة ولتمويل الحروب العدوانية . وفى كتابه « حوارات الموتى » الذى ألفه لتلميذه ، وسم بالهمجية « تلك الحكومة التى لاقوانين فيها غير ارادة رجل واحد ... فالحاكم ينبغى أولا وقبل كل شىء أن يكون مطيعاً للقانون ، فاذا ابتعد عن القانون لم يعد لشخصه قيمة » . وكل الحروب حروب أهلية ، لأن الناس جميعاً أخوة ، يدين كل منهم للنوع الإنسانى — وهو الدولة الكبرى — بدين أعظم كثيراً من دينه للبلد الذى ولدفيه(١١٨) » . أما الملك ، الذى لم يكن ضالعا فى هذا التعليم الذى لاتفهمه غير القلة ، والذى رأى تحسنا عجيباً فى خلق حفيده ، فقد كافأ فنيلون برئاسة أسقفية كامبريه (١٦٩٥) . وأخجل فنيلون أحباراً كثيرين باقامته تسعة أشهر من كل عام فى مقر رئاسته الدينية . أما الشهور الباقية فكان ينفقها فى البلاط تواقا للتأثير فى السياسة ، مواصلا أحياناً تعليم الدوق .

وخلال ذلك كان قد التقى بالمرأة التى قدر لها أن تكون « المرأة القاضية عليه » بمعنى الكلمة . هـذه المرأة ، واسمها مدام جان مارى دلا موت — جويون ، التى تزوجت فى السادسة عشرة ، وترملت فى الثامنة والعشرين وهى جميلة غنية ، تهافت الخطاب على طلب يدها ، ولكنها كانت قد تلقت تدريباً دينيا مكثفا ليحصنها ضد الرجال الطامعين ، ولم تجد لتقواها منصرفا كافيا فى المراعاة الصورية لشعائر العبادة الكاثوليكية ، فاستمعت فى تجاوب لمتصوفة زمانها الذين وعدوا بسلام النفس — لا بالاعتراف والتناول والقداس بقدر ما هو بالاستغراق فى تأمل إله كلى الوجود ، وفى استسلام النفس لله استسلاماً كاملا محبا . فى مثل هذه المحبة الالهية لم يعد لأمور الدنيا وزن ، وفى مثل هذا التسامى الروحى يجوز للمرء أن يهمل كل الطقوس

الدينية ومع ذلك يرقى إلى السماء ، لا بعد الموت فحسب بل فى الحياة أيضاً .
وكانت محكمة التفتيش قد أدانت القس الأسبانى ميجويل دى مولينوس (١٦٨٧) لأنه بشر بـ « هدوئية » كهذه فى ايطاليا ، ولكن الحركة كانت تنتشر فى جميع أرجاء أوربا ـ فى «تقوية» ألمانيا والأراضى المنخفضة ، وبين الكويكرز وأفلاطونى كمبردج بأنجلترة ، وبين « المنذورين » فى فرنسا .

وقد بسطت مدام جويون آراءها فى عدة كتب ببلاغة مؤثرة . فزعمت أن النفوس أشبه بالسيول التى انبثقت من عند الله وأنها لن تجد الراحه حتى تفنى نفسها فيه تعالى كأنها الأنهار يبتلعها البحر ، فإذا الفردية تتلاشى ، وإذا الوعى بالذات أو بالعالم ، بل الوعى كله ، ينتهى ولا يبقى غير الاندماج فى الله . فى مثل هذه الحال تكون النفس معصومه ، لا ينال منها خير ولا شر ، ولا فضيلة ولا خطيئه . فمهما فعلت ففعلها صواب ، ولا تستطيع قوة أن تؤذيها . وقالت مدام جويون لبوسويه أنها لا تستطيع أن تطلب المغفرة على ذنوبها ، لأنه لا ذنوب فى عالم الوجد الصوفى الذى تعيش فيه(١١٩) » . ورأت بعض نساء الطبقه الأرستقراطيه فى هذه الصوفيه لونا رفيعا من التقوى . وكان من بين مريديها السيدات بوفيلييه ، وشوفروز ، وبورتمار ، يل — إلى حد ما — مدام دمانتنون . واستهوى فنيلون نفسه هذا المزيج الساحر من التقوى والثراء والحسن . وكان خلقة هوذاته مزيجا معقداً من الصوفية والطموح والعاطفه الرقيقة . فأقنع مدام دمانتنون بأن تسمح لمدام جويون بالتدريس فى المدرسة التى أسستها زوجه الملك السرية فى سان سير ، وطلبت مانتنون إلى كاهن اعترافها أن ينصحها فى أمر مدام جويون ، فاستشار بوسويه ، ودعا بوسويه المتصوفة لتشرح له تعاليمها ، ففعلت . وتوجس الأسقف الحذر فيها خطرا يتهدد لاهوت الكنيسة وممارساتها ، لأنها لم تستغن عن الاسرار المقدسة والكاهن

فحسب ، بل عن الأناجيل والمسيح أيضاً ، فوبخها ، وناولها القربان ، وطلب إليها أن ترحل عن باريس وتكف عن التعليم . فوافقت أول الأمر ، ولكنها عدلت بعد ذلك . واستطاع بوسويه أن يحمل السلطات على حبسها فى دير ثمانية أعوام (١٦٩٥ — ١٧٠٣) أفرج عنها بعدها شريطة أن تعيش فى هدوء على ضيعة ابنها قرب بلوا ، وهناك ماتت عام ١٧١٧ .

وأراد بوسويه أن يرسم الحدود للتصوف المباح ، فألف كتاباً سماه « تعليم عن حالات الصلاة » (١٦٩٦) وأطلع فنيلون على نسخة من المخطوطة وطلب إليه أن يوافق عليها . وتردد فنيلون ، وكتب كتاباً معارضاً سماه « تفسير أقوال القديسين المأثورة عن الحياة الباطنة » (١٦٩٧) . وأصبح الكتابان اللذان نشرا فى وقت واحد تقريباً مثار نقاش واسع ، احتدم احتدام النقاش حول البور — رويال . أما الملك الذى كان يضع ثقته فى بوسويه فقد عزل فنيلون من وظيفته معلماً لدوق برجنديه ، وأمره بأن يلزم أسقفيته فى كامبرى . وطلب لويس إلى البابا بتحريض من بوسويه أن يشجب كتاب فنيلون . ولكن إنوسنت الثانى عشر تردد ، فهو لم ينس نزعة بوسويه الغالية ، ودفاع فنيلون عن سلطة البابا المطلقة . وضغط لويس على البابا ، فأذعن ، ولكنه توخى غاية الاعتدال فى ادانته لكتاب « الاقوال المأثورة » (مارس ١٦٩٩) . وأذعن فنيلون للحكم فى هدوء .

ثم راح يؤدى واجباته فى كامبرى باخلاص وضمير أكسباه احترام فرنسا ، ولعلهما كانا خليقين باسترضاء بوسويه والملك لولا أن طابعاً نشر (أبريل ١٦٩٩) برضى فنيلون رواية كان قد ألفها لتلميذه الأمير ووضع لها عنوانا بريئاً فى ظاهره « تتمة لأوديسة هوميروس » وهى معروفة لنا باسم (مغامرات تيليماك بن أوليس) . هنا ، وفى أسلوب يفيض رشاقة ونعومة ورقة أنثوية تقريبا ، شرح المعلم اللطيف مرة أخرى فلسفته السياسية المثالية . فترى لسان حاله (منتور) يحذر الملوك بعد أن أفنعهم بسياسة السلام قائلا :

« منذ الآن تكونون كلكم شعباً واحداً تحت أسماء شتى ورؤساء مختلفين . . . فما النوع الإنسانى كله غير أسرة واحدة . . . وكل الشعوب إخوة . . . وما أتعس القوم الفجار الذين ينشدون المجد القاسى فى دماء إخوانهم المسفوكه . . . إن الحرب ضرورية أحياناً ، ولكنها معرة الإنسانية . فلا تزعموا لى أيها الملوك إن على المرء أن يبتغى الحرب إن أراد المجد . . . فكل من يؤثر مجده على مشاعر الإنسانية ليس إنساناً بل هو وحش تملؤه الكبرياء ، ولن يكسب غير المجد الزائف ، لأن المجد الحقيقى لا يكون إلا فى الاعتدال والصلاح . . . ويجب ألا يرى الناس فيه رأياً طيبا ، لأنه لم يقم لهم وزناً فى فكره ، وأراق دماءهم فى سفه ليرضى غروراً وحشياً (١٢٠) » .

وقد سلم فنيلون بحق الملوك الإلهى ، ولكن بوصفه قوة منحتهم إياها العناية الإلهية ليسعدوا الناس ، وحقاً تحده القوانين :

« إن السلطة المطلقة تهوى بالرعية جمعاء إلى درك العبودية . فهم يتملقون الطاغية إلى حد العبادة . وكلهم يرتعدون فرقا لنظرة منه ، ولكن ما إن تهب أضعف نسمة من نسمات التمرد عليه حتى ينهار هذا السلطان القبيح نتيجة شططه . ذلك أنه لم يستمد أى قوة من محبة الشعب (١٢١) » .

فى هذه الأسطر رأى لويس الرابع عشر نفسه موصوفا ، وحروبه مدانة . وبادر أصدقاء فنيلون بالاختفاء من البلاط ، وقبض على طابع « تيليماك » ، وأبلغت الشرطة بمصادرة جميع نسخه . ولكنه طبعه ثانية فى هولندة ، وسرعان ماتداولته الأيدى فى جميع أرجاء العالم القارىء للفرنسية ، وظل أوسع الكتب الفرنسية قراءة وأحبها إلى القراء طوال قرن من الزمان (١٢٢) وأكد فنيلون أن لويس لم يكن فى ذهنه فى هذه الفقرات الناقدة ، ولكن أحداً لم يصدقه . وانقضت سنتان قبل أن يجرؤ دوق برجنديا على الكتابة لمعلمه الأسبق . ثم لانت قناة الملك ، وسمح له بأن يزور فنيلون فى كامبرى .

وعاش رئيس الأساقفة يعلل نفسه بأن تلميذه سيرث العرش عما قليل ، وعندها يدعوه ليكون وزيره كما كان ريشليو وزيراً للويس الثالث عشر . ولكن الحفيد مات قبل أن يموت الجد بثلاث سنين ، ثم سبق فنيلون نفسه لويس إلى القبر بتسعة أشهر (٧ يناير ١٧١٥) .

أما بوسويه فكان قد سبقهما بزمان . لقد كان تعسا فى أخريات أيامه ، حقا إنه انتصر على فنيلون ، وعلى دعاة السلطة البابوية المطلقة ، وعلى المتصوفة ، ورأى الكنيسة منتصرة على الهيجونوت ، ولكن هذه الانتصارات كلها لم تيسر له قذف الحصى من مثانته . وقد برح به الألم تبريحا جعل من العسير عليه أن يحتمل الجلوس فى المكان الذى أولع بالجلوس فيه فى احتفالات البلاط ، وتساءل الساخرون القساة ، لم لا يستطيع أن يذهب إلى مو ويموت فى هدوء . وقد رأى من حوله ظهور الارتيابية ، ونقد الكتاب المقدس ، والجدليات البروتستنتية العنيفة التى صوبت فى غير تقوى إلى رأسه . فها هو على سبيل المثال ذلك الهيجونوتى المنفى جوريو يخبر العالم بأنه هو ، بوسويه ، أسقف الأساقفة ، والصورة المجسمة للفضيلة والاستقامة ، كذاب أشر يعاشر المحظيات(١٢٣) . وقد بدأ تأليف كتب جديدة للرد على هؤلاء الخصوم السفهاء ، ولكن الحياة كانت تنحسر عنه وهو يكتب ، وفى ١٢ أبريل ١٧٠٤ وضع الموت حداً لآلامه .

ويبدو لأول وهلة أن بوسويه يعين أوج الكاثوليكية فى فرنسا الحديثة . فقد لاح أن المذهب القديم قد استرد كل الأرض التى استولى عليها لوثر وكالفن . وكان رجال الاكاديموس يصلحون من أخلاقهم ، وراسين يخصص مسرحياته الأخيرة للدين . وكان بسكال قد أدار دوائر الارتيابية على المرة بين ، والدولة جعلت نفسها وكيلا مطيعا للكنيسة ، والملك أوشك أن يكون يسوعيا .

ومع ذلك لم يكن الموقف بالغ الكمال . فاليسوعيون لم ينقشع من

فوق رءوسهم بعد ذلك الغبار الذى أثارته عليهم رسائل بسكال الاقليمية ، والجانسنية مازالت بخير ، واللاجئون الهيجونوت يؤلبون نصف أوربا على الملك الورع ، والناس يقرأون مونتينى أكثر مما يقرأون بسكال ، وهوبز وسبينوزا وبيل يكيلون اللطمات الهائلة لصرح الإيمان . يقول القديس فانسان دبول (١٦٤٨) ، « يشكو عدة رعاة من أن عدد من يتناولون القربان قد تقلص ، ففى سان — سولبيس نقص العدد ٣٠٠٠ ، ووجد راعى سان — نيكولا — دو — شاردونيه أن ١٠٠٠ر١ من رعايا أبرشيته تخلفوا عن قربان القيامة(١٢٤) » . وقال بيل فى ١٦٨٦ « إن العصر الذى نعيش فيه يحفل بأحرار الفكر والربوبيين ، ويدهش الناس لكثرة عددهم(١٢٥) » « ويسود عدم المبالاة الرهيب بالدين فى كل مكان(١٢٦) » وقد عزا هذا إلى حروب العالم المسيحى وجدلياته . وقال نيكول : ليكن معلوما أن الهرطقة الكبرى فى العالم ليست الكالفنية ولا اللوثرية ، بل الإلحاد(١٢٧) » . وقالت الأميرة بالاتين فى ١٦٩٩ « قل أن يجد المرء الآن شابا لا يشتهى أن يكون ملحداً (١٢٨) » وروى لايبنتز أن فى باريس (١٧٠٣) « تفشت بدعة من يسمونهم العقول القوية ، ويسخر الناس هناك من التقوى . . . وتحت حكم ملك تقى صارم مطلق السلطة ، تجاوزت فوضى الدين كل الحدود التى شهدناها من قبل فى العالم المسيحى(١٢٩) » . وبين ذوى العقول القوية — وهى قوية إلى درجة تكفى للتشكك فى كل شىء تقريبا — نجد سان إفريمون ، وليتون دلانكلو ، وبرنييه ملخص فلسفة جاسندى ، ودوقى نيفير وبوبون . وأصبح « التاميل » الذى كان يوما مقراً لفرسان المعبد (الداوية) فى باريس ، مركزاً لجماعة صغيرة من أحرار الفكر — شولييه وسيرفيان ، ولافار ، الخ — الذين أسلموا تهكمهم بالدين إلى عهد الوصاية . أما فونتنيل ، الذى قارب المائة وتحدى الفناء وأفسح له فى الأجل حتى تبادل النكت مع الموسوعيين ، فكان فى ١٦٨٧ ينشر كتابه (تاريخ النبوءات) ويقوض فى خبث أساس المسيحية المعجز . وهكذا مهد لويس فى نشوة تقواه وورعه الطريق لفولتير .